٢٠٢٤

الاخوان من تاريخ التنظيم الأسود

طارق أبو السعد

كاتب مصري

لماذا قدّم الإخوان ثلاث تفسيرات مختلفة لرسالة التعاليم لحسن البنا؟

كتب حسن البنا القليل من الكتب، وبعض الرسائل، والكثير من المقالات، وما حظي من ذلك بالاهتمام الحقيقي رسائله الخاصة لجماعته، وأشهرها على الإطلاق رسالة «التعاليم» التي كتبها العام ١٩٣٨، وتشكّل، مع رسالة «المؤتمر الخامس»، المكوّن الفكري الأهم والحقيقي لحركة الإخوان المسلمين والإسلام السياسي من بعد، فقد وضع البنا فيهما خلاصة مشروعه، وأوضح طرق تنفيذه ومراحل تكوينه، كما رسم بدقّة دور كلّ عضو في التنظيم، بحسب كلّ مرحلة، لهذا قدّم البنا رسالته الى طائفة خاصّة من الإخوان، أطلق عليها «الإخوان المجاهدين»، وهم أفراد النظام الخاص، وظلّ لعشرة أعوام يشرحها لتلك الفئة المخصوصة المصنوعة على عينه، كانت رسالة «التعاليم»، ومعها رسالة «المنهج»، نصاً سرياً لمجموعة مخصوصة، لهذا كانت شروحهما غير معلنة للعامة، فلم يدوّن البنا مراده من كلّ جملة في الرسالة، مكتفياً بما لقنه شفوياً وعملياً لتلك المجموعة.

لكنّ الغريب؛ أنّ الإخوان أعادوا إنتاج تلك الرسالة ثلاث مرات، مع شرح جديد في كلّ مرّة لها! ولا أحد يعلم لماذا لم يقدموها بشرح حسن البنا نفسه؟ رغم أنّ كثيراً ممّن حضروا شرح الرسالة من كاتبها الأصلي، كانوا ما يزالون على قيد الحياة وقت كتابة تلك الشروح.

المرة الأولى كانت العام ١٩٥٢، بشرح عبد المنعم تعيلب، الإخواني الشاب الأزهري، ثمّ قدموها العام ١٩٨٠ بشرح سعيد حوى، الإخواني السوري، بشرح مختلف تماماً عمّن سبقه، ثم بعد عشرة أعوام؛ أي في العام ١٩٩٠، ظهر شرح

«قدّم البنا رسالته الى طائفة خاصّة من الإخوان وظلّ لعشرة أعوام يشرحها لتلك الفئة المخصوصة»

ثالث لمحمد عبد الله الخطيب، مفتي الإخوان الأزهري، والملاحظ أن تركيز الإخوان الفكريّ انصب على جزء من الرسالة، وهي الأصول العشرون للفهم، وتقديمها كأنّها من متطلبات إيمان المسلمين.

تشير المعطيات إلى أنّ الإخوان المسلمين استخدموا رسالة التعاليم، باعتبارها «مانفيستو المشروع الإسلامي» بصورة براجماتية، فمع كلّ متغيّر في الحياة السياسية، يقوم الإخوان بطرح مشروعهم الإسلامي عبر إعادة طرح رسالة «التعاليم» و«الأصول العشرون للفهم»، مع شرح مختلف يوهم القارئ أنّ حسن البنا كتبها من أجل هذا الغرض.

أولاً: رسالة «التعاليم» باعتبارها أساساً للبيعة:

في مطلع الخمسينيات، بعد مقتل البنا، وقيام ثورة يوليو؛ قدّم الشاب الأزهري، عبد المنعم تعيلب، كتيّباً يشرح فيه رسالة «التعاليم»، وضع له عنواناً كبيراً؛ هو «البيعة»، ومعلوم أنّه، مع ثورة يوليو، حدثت متغيرات في السياسة، وأنّ قوة شعبية جديدة أخذت تتولد. فظهرت حاجة الإخوان إلى شرح جديد لرسالة «التعاليم»، فقد كانت قديماً تخاطب أعضاء بعينهم في الجماعة «إخوان النظام الخاص»، خطاباً سرّياً، وليس عاماً، وقام حسن البنا بشرح رسالته، في لقاءات خاصة وسرية، أمّا على أعتاب ثورة يوليو، أو بُعيد الثورة بأسابيع، (نظراً إلى تاريخ طبع الرسالة)، أخذ تعيلب يغازل الضباط الأحرار، بقوله: «كلّ جنديّ لا بدّ من أن يقسم يمين الولاء، وولاؤك لله لا يكون إلّا بعهد بينك وبينه، أن تدافع عن الإسلام حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كلّه لله، أو تموت دون ذلك»، ثم يقول، بعد عدة سطور: «والجنود وحدهم هم المدعوّون لهذه البيعة، وسترى من إيجازها ووضوح ألفاظها أنّها إلى الأوامر العسكرية أقرب منها إلى الأساليب

الخطابية، فهي تحتاج إلى عزيمة وحزم أكثر مما تحتاج إلى استذكار وحفظ، فاعمدوا إلى العمل أيّها المتبايعون».

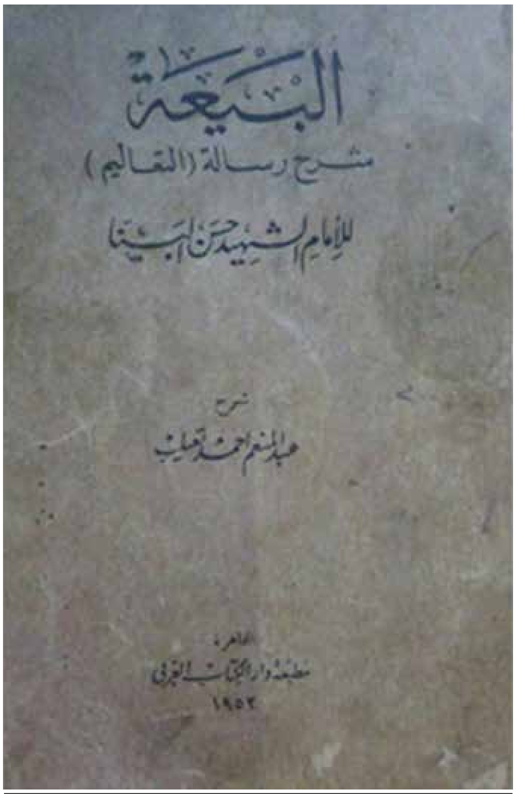

غلاف كتيب «البيعة» والذي يحوي شرح «رسالة التعاليم»

ويُلاحَظ هنا أنّ الرسالة قُدّمت باعتبارها تعليمات وأوامر يلقيها قائد لجنوده العسكريين، الذين يجب أن تكون لهم بيعة لله!! وكأن الإخوان بذلك يتقربون من الضباط الأحرار، ويذكّرون بعضهم بما كان بينهم وبين البنا من عهد قبيل الثورة.

فجاء شرح تعيلب مليئاً بالإشارات العسكرية، وحافلاً بالإيماءات التي لم يكن يقصدها البنا، وداخل شرح الرسالة الكثير من التلميحات لكيفية تكوين الحكومة الإسلامية، لكن «شهر العسل» مع السلطة الجديدة لم يطُل، وما لبث الإخوان أن دخلوا في صدام مباشر مع ثورة يوليو، بدءاً من منتصف الخمسينيات إلى نهاية الستينيات، حتى أفرج عنهم الرئيس الأسبق، أنور السادات، وسمح لهم بالعمل الدعوي والعام داخل المجتمع العربيّ والإسلاميّ.

ثانياً: نظرية في العمل الحركي الإسلامي

ومع عودة الإخوان في السبعينيات، تغيّرت ملامح المشروع الإسلامي، فظهرت الحاجة إلى كتب يجتمع عليها الشباب الإسلامي المستهدف بالتجنيد، فقامت مجلة «الدعوة» في السبعينيات بإعادة طباعة رسائل حسن البنا، منفصلة أو مجمعة، بهدف تحسين صورة الحركة الإسلامية الصاعدة بعد عهد الصدامات، والتبرؤ من أفكار سيد قطب مؤقتاً، بارتداء ثوب الدعاة، والتوقف عن العنف وحمل السلاح، ولم يجدوا أفضل من حسن البنا للقيام بهذا الدور لربط الحركة الدينية الوليدة بهم.

«جاء شرح تعيلب مليئاً بالإشارات العسكرية وحافلاً بالإيماءات التي لم يكن يقصدها البنا»

واجه الإخوان مشكلة ارتداء هذا الثوب الجديد في السبعينيات، فرسالة التعاليم تتنافى صراحة مع التوجه الجديد بنبذ العنف؛ ففيها التصريح باستخدام السلاح، والخروج على المجتمع، وعلى الحاكم أيضاً، فأسقط في أيديهم، ولم يكن يصلح مع تلك المرحلة إعادة نشر شرح عبد المنعم تعيلب، فكان لا بدّ من تقديم رسالة «التعاليم»، بشكل مخفف ومخاتل، فطلبوا من سعيد الحوى، الكاتب الإخواني السوري الجنسية؛ أن يكتب في شرح هذه الرسالة، على أن يصبّ شرحه في الهدف المطلوب، وهو تمويه فكرة «استخدام الإخوان العنف والسلاح في التغيير»، والرغبة في القفز على السلطة؛ لهذا لم يأتِ كتاب حوى «في آفاق التعاليم»، باعتباره شرحاً للتعاليم؛ بل أقرب إلى تقديمها باعتبارها نظرية حركية في العمل الإسلامي تمتلك مقوّمات بناء الشخصية الإسلامية الجديدة، أو التي يسعى الإخوان إلى خلقها.

جاءت «آفاق» حوّى ضمن مشروعه الذي أطلق عليه «في البناء الإسلامي»، وشمل كتباً مثل: «جند الله ثقافة وخلقاً»، وكتاب «من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك»، ثم كتابه الشهير «المدخل لدعوة الإخوان المسلمين»، وفي «في آفاق التعاليم» كثيراً ما استشهد بكتاباته من الكتب السابقة.

سعى سعيد حوى لإقناع القراء بأنّ مراحل تنفيذ مشروع حسن البنا (التعريف- التكوين- التنفيذ)؛ إنما هي مراحل الدعوة للإسلام ذاته؛ من مدخل تعريف الناس بالإسلام الحقيقي، ثمّ يتمّ تكوين المؤسسات الإسلامية، ثمّ تأتي مرحلة تطبيق الإسلام ذاته في تلك المؤسسات، رغم أنّ البنا كان يراها مراحل عمل عضو الإخوان في التنظيم، وهذا الطرح كان مناسباً لمرحلة السبعينيات لتجميع كلّ الشتات الإسلاموي في وعاء واحد، وهو الإخوان المسلمون، وانتهت تلك المرحلة بعد اغتيال الرئيس السادات بأيدي الإسلامويين أنفسهم، واحتاج الإخوان إلى أن يكونوا أكثر وضوحاً، وأن يكون مشروعهم أكثر تميزاً من بين فصائل

العمل الإسلاموي، فأعادوا شرح «التعاليم» باعتباره فكراً تربوياً.

حسن البنا

ثالثاً: ثوب الركيزة التربوية

من منتصف الثمانينيات من القرن الماضي؛ كان على الإخوان المسلمين أن يتمايزوا عن باقي فصائل الحركة الإسلاموية، فاختاروا أن توسم جماعتهم بأنّها تسعى إلى التغير عبر ركيزة التربية، فأعلنت أنّ مشروعها تربوي فقط، قائم على إعادة تكوين مقومات الشخصية المسلمة، مع عدم إنكار باقي الركائز، والجماعات الجهادية التي تؤمن بالتغيير باليد؛ أي السلاح، مثل الجهاد والجماعة الإسلامية، وجماعات التثقيف الإسلامي مثل: السلفية العلمية، أو السلفية الحركية، فلم يكن أمامهم إلا إعادة إنتاج رسالة التعاليم وفق شرح جديد لصالح فكرة التربية، وتكوين الفرد المسلم، وفق تأصيل شرعي، لا حركي، وتحويل الرسالة التي كانت لفئة مخصوصة سرية، إلى منهج تربوي للجميع، وكأنّ البنا كتبها لعموم المسلمين!

واجه الإخوان مأزقاً جديداً هذه المرة، تمثّل في الملاحظات الشرعية على جماعة الإخوان، تلك الملاحظات كانت كافية لإفساد مخططها في السيطرة على العمل السياسي والتربوي والدعوي، خصوصاً أنّها جاءت من التيار السلفي، الذي كان قد تميز عليهم بتأصيله الشرعي لحركته، وبالتالي؛ لم تكن تصلح إعادة نشر رسالة التعاليم بشرح تعيلب ولا حوى؛ لهذا اختار الإخوان لتلك المهمة أحد أقطاب الإخوان

«لمواكبة التيار السلفي وتأصيلاته اختار الإخوان الشيخ محمد الخطيب للشرح الثالث «نظرات في رسالة التعاليم»

«مع السبعينيات كان لا بدّ من تقديم رسالة «التعاليم» بشكل مخفف ومخاتل وتولى المهمة سعيد الحوى»

سعيد حوى

الشرعيين، وهو الشيخ محمد الخطيب، فجاء كتابه بعنوان «نظرات في رسالة التعاليم».

يستهل الخطيب شرحه للرسالة باعتبارها مسؤولية كبرى، وأنّه «غير أهل لشرح كلمات المؤسس حسن البنا»، إلا أنه سيقدم على المهمة؛ نظراً إلى أهميتها، ثم يقول عن الرسالة نفسها: «الحديث عن رسالة التعاليم وما حوته من توضيح لطريق الدعوة وبيان لمعالم المستقبل، قد وضعت قدم المسلم على بداية الطريق للوصول إلى الهدف، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا في هذا الكون، إنَّ الحديث عن هذه الرّسالة ما هو إلا سياحة في جوانبها، وليس شرحاً لها بالمعنى التقليدي المعروف، وإن شئت فقل هي قراءة جديدة لها».

ويقول أيضاً: «المكانة الخطيرة التي تحتلها هذه الرسالة، والدور بالغ الأهمية، الذي أراده لها أن تضطلع به في بناء الصفّ المؤمن السليم»، موضحاً: «جاءت رسالة «التعاليم» نموذجاً فريداً، يحدد بدقة ويرسم بعناية ضوابط الفهم ودعائم التربية وأصول الحركة لجماعة الإخوان المسلمين»، فجاء هذا الكتاب ضمن مشروع كبير تبنته الجماعة لتثقيف الصفّ الإخواني، تحت عنوان «سلسلة نحو النور».

تقدم هذه المحطات الثلاث تكتيكات الإخوان الدائمة في إعادة تدوير مشروعهم وفق واقع الحال، لتناسب في كل مرة اللحظة التاريخية التي يمرون بها، وفي كلّ مرّة يزعمون أنّ هذا هو ما كان يقصده البنا، حتى لو أدى ذلك إلى تناقضات ظاهرة!

اللقاء المزعوم بين طه حسين وحسن البنا

لطالما سعى الإخوان المسلمون إلى صنع أمجاد موهومة لحسن البنا، مؤسس الجماعة، فدائماً لديهم روايات مختلقة تمجّد شخصه وترفع من مكانته، يدّعون أنّ خصومه شهدوا بها، ويدوّنونها في كتبهم بأكثر من صيغة، ويحكونها شفهياً في لقاءاتهم، ويرددونها ملايين المرات على أسماع أتباعهم ومؤيديهم، حتى يظنّ المستمع أنّها حقيقية، وما هي إلا حيلة خبيثة يتبعونها ليصنعوا مجدهم ولو بالباطل، يراهنون على نسيان الناس للحقيقة، أو على موت من شهد الوقائع ويعرف الأسرار، وعلى أمل أن تأتي أجيال تالية؛ لا تجد إلا حكايات الإخوان، فتتلقاها على أنّها صحيحة، ومن ثم تصبح تاريخاً مسلّماً به.

ولعلّ من أشهر «الوقائع» المزعومة التي يحكيها الإخوان عن مؤسس جماعتهم؛ لقاءه المزعوم بالدكتور طه حسين، هذا اللقاء الذي تم في خيال الإخوان فحسب، وهذه الحكاية، بقليل من التمحيص، ستكتشف أنها مختلقة بالكلية.

تقول الرواية المنحولة في كتاب «الإخوان المسلمين.. أحداث صنعت التاريخ»، لمحمود عبد الحليم، ص ٢٤٤: إنّه «لما نشر طه حسين كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، وضمّنه ما يجب أن تتجه إليه الثقافة في مصر من ضرورة الأخذ بالحضارة الغربية: خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، هاجت الدنيا وماجت، وتناولت أقلام النقاد الكاتب بين قادح ومادح، ولم يكترث طه حسين بكلّ ما كُتب، وصمّم على وضع آرائه في الكتاب موضع التنفيذ باعتباره مستشار وزارة المعارف، وهنا اتصل بعض الغيورين من أصدقاء الشيخ حسن البنا به، وطلبوا منه أن يكتب نقداً للكتاب، وردّ الشيخ حسن البنا بأنّه لم يطّلع على الكتاب لضيق وقته وكثرة الصوارف، فأبدوا اعتراضهم: كيف لم تقرأه وقد طبع من أربعة أشهر فقط! وألحّوا عليه بضرورة قراءة الكتاب، وبيان كلمة الإخوان قبل أن يوضع الكتاب

«لطالما سعى الإخوان لصنع أمجاد موهومة لحسن البنا بروايات مختلقة تمجّد شخصه وترفع من مكانته»

موضع التنفيذ، لا سيما أنّه سيؤدي إلى تغيير جذري في سياسة البلد الثقافية، ولم يكتفوا بذلك، بل أخبروه أنهم حددوا موعداً لبيان ذلك في دار الشبان المسلمين وطبعوا الدعوات، وكان الموعد بعد خمسة أيام، ولم تمض الأيام الخمسة حتى كنت قد استوعبت الكتاب كلّه».

ويتابع: «وفي الموعد المحدد ذهبت إلى دار الشبان، فوجدتها على غير عادتها غاصة، والحاضرون هم رجالات العلم والأدب والتربية في مصر، ووقفت وإلى جانبي الدكتور يحي الدرديري، السكرتير العام للشبان المسلمين، ورأيت الكتاب كله مطبوعاً في خاطري بعلاماتي التي علمتها عليه بالقلم الرصاص».

ويمضي البنا في سرد بطولته لمحمود عبد الحليم فيقول: «وبدأت أول ما بدأت، فقلت: لن أنقد هذا الكلام من عندي وإنما سأنقد بعضه ببعض، وأخذت -ملتزماً بهذا الشرط- أذكر العبارة من الكتاب، وأعارضها بعبارة أخرى من الكتاب نفسه، ولاحظ الدكتور الدرديري أنّني في كل مرة أقول: يقول الدكتور طه في الكتاب في صفحة كذا، وأقرأ العبارة بنصها من خاطري، ثم أقول: ويناقض الدكتور طه نفسه فيقول في صفحة كذا، وأقرأ العبارة بنصها أيضاً من خاطري، فاستوقفني الدكتور الدرديري، وطلب إلي أن أمهله حتى يحضر نسخة من الكتاب ليراجع معي النصوص والصفحات، وجيء له بالكتاب وظلّ يتابعني، فيجد العبارات لا تنقص حرفاً ولا تزيد حرفاً، فكاد الدكتور الدرديري يجنّ، كما ساد الحاضرين جوّ من الدهشة والذهول، وهكذا حتى انتهى الكتاب، وانتهت المحاضرة».

ويضيف: «ولما هممت بالانصراف، رجاني الدكتور الدرديري أن أنتظر برهة؛ لأنّه يريد أن يسرّ لي حديثاً، واقترب مني وأسرّ في أذني سرّاً تعجبت له، قال: «لما نشرنا عن موضوع محاضرتك وموعدها اتصل بي الدكتور: طه حسين، وطلب إليّ أن أعدّ له مكاناً في هذه الدار، يستطيع فيه أن يسمع كل كلمة تقولها، دون أن

«من أشهر «الوقائع» المزعومة التي يحكيها الإخوان عن مؤسس جماعتهم لقاؤه المزعوم بطه حسين»

يراه أو يعلم بوجوده أحد، فأعددنا له المكان، وحضر المحاضرة من أولها إلى آخرها، ثم خرج دون أن يراه أو يعلم به أحد»، وفي اليوم التالي: طلب الدكتور طه حسين من أحد موظفي وزارة المعارف، أن يرتب له اجتماعاً مع الشيخ حسن البنا في أيّ مكان، دون أن يكون معهما أحد، ودون أن يعلم بهما أحد، وليكن هذا المكان في بيته أو بيتي، أو في مكتبي هنا، ووافق الشيخ حسن البنا، ورأى أن يكون الاجتماع في مكتبه بالوزارة، وتمَّ الاجتماع، وبدأه الدكتور طه حسين بقوله: لعلك، يا أستاذ حسن، لا تعلم بأنني حضرت محاضرتك، وبأنني كنت حريصاً على حضورها، وعلى الاستماع إلى كل كلمة تقولها، لأنني أعرف من هو حسن البنا، وأقسم لك لو أنّ أعظم عظيم في مصر كان في مكانك ما أعرته اهتماماً، قال الشيخ حسن البنا: فشكرته، ثم سألته عن رأيه في المواضع التي وجهت النقد إليها في الكتاب، وهل لديه من ردّ عليها؟ يزعم حسن البنا أنّ الدكتور طه حسين قال له: ليس لي ردّ على شيء منها، وهذا نوع من النقد لا يستطيعه غيرك، وهذا هو ما عناني مشقة الاستماع إليك، ولقد كنت أستمع إلى نقدك لي، وأطرب...، وأقسم يا أستاذ حسن؛ لو كان أعدائي شرفاء مثلك لطأطأت رأسي لهم، لكن أعدائي أخسَّاء، لا يتقيدون بمبدأ ولا بشرف، وقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يمحوا اسمي من التاريخ، وقد كرّست حياتي لإحباط مكايدهم، وها أنا ذا، بحمد الله، في الموضع الذي تقطع أعناقهم دونه، ليت أعدائي مثل حسن البنا، إذاً لمددت لهم يدي من أول يوم».

تفنيد هذه الرواية سهل جداً؛ فأولاً: هذه الرواية ليس عليها شهود إلا محمود عبد الحليم، حتى حسن البنا نفسه لم يذكرها في مذكرات «الدعوة والداعية»، ثانياً: لم تذع هذه المقابلة المزعومة إلا بعد موت طه حسين، وهو الطرف المهم في الرواية، فقد نشرها محمود عبد الحليم، للمرة الأولى، العام ١٩٧٨، وطه حسين توفّي في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣، ثالثاً: لم يجرؤ أيّ من الإخوان على مواجهة طه حسين بها، أو تذكيره بانبهاره بحسن البنا، عندما كتب

مقالته ضدّ الإخوان، العام ١٩٥٤، بعنوان «هؤلاء هم الإخوان»، رابعاً: الرواية تزعم أنّ الكتاب نشر من أشهر قليلة، وهذا الحديث دار بين البنا وتلميذه محمود عبد الحليم في الربع الأول من العام ١٩٤٠، أي بعد نشر الكتاب بعامين، فأول طابعة كانت العام ١٩٣٨.

أما عمر التلمساني، المرشد الثالث للإخوان المسلمين، فيسرد تلك الحكاية لكن بتفاصيل أخرى، في كتابه «الملهم الموهوب»، ص ٣٧، ووضع تفاصيل في الروايتين تنسفان بعضهما البعض، فعمر التلمساني يجعل حسن البنا هو الذي يتقدم بطلب للجامعة، يتناقض مع الرواية السابقة، ثانياً الجامعة هي مقر المحاضرة، وليست جمعية الشبان المسلمين، ثالثاً: يزعم عمر التلمساني أنّ الجامعة رفضت إقامة المحاضرة لأنّ الطلب وُقِّع باسم المرشد العام للإخوان المسلمين، ويزعم أن حسن البنا تنازل عن اللقب من أجل المحاضرة.

أخيراً: أكبر دليل على عدم صحة هذه الحكاية؛ أنّ الروايتين اتفقتا في أنّ البنا أعد ردّاً مفحماً لفكر وكتاب طه حسين، فأين هذا الردّ؟ لماذا لا نجد له أثراً؟ كيف لم يدوّن الإخوان ردّاً كهذا؟ وحرموا الأمة من معرفة تلك الجمل المتناقضة؟ ولم يفسدوا مخطط طه حسين لإفساد الأجيال؟! هل يعقل أن يغفل الإخوان عن تدوين الردّ الذي أسكت طه حسين نفسه؟! على طول تاريخ الإخوان لن نجد هذا الردّ؛ لأنّه، وببساطة، لا يوجد، ولم يوجد، وهذه الحكاية مختلقة تماماً!

ما حقيقة دور المرأة في الجماعة وكيف نشأ قسم الأخوات المسلمات؟

يطلق الإخوان المسلمون الكثير من عبارات التفخيم بحق المرأة، بداية من ضرورة احترامها وتقديرها ورعايتها، وصولاً إلى تبنّيهم مبدأ مشاركتها في الحياة السياسية، وتولّيها القضاء والمناصب العليا في الوطن، وهي خطابات قد ينخدع البعض بها، فيتوهّم أنّ هذا هو موقف الإخوان الحقيقي.

الحقيقة يمكن رؤيتها بوضوح في تنظيم قسم الأخوات، فكلّ ما زعم الإخوان أنّه مبدأ أصيل لديهم، يظلّ على المحكّ، هو ما يطبقونه في تنظيمهم؛ فكيف نشأ هذا التنظيم؟ وكيف يدار؟ وماذا يقدّم؟ وما هي حقيقة دور النساء في الجماعة؟

نشأة قسم الأخوات

نشأت جماعة الإخوان كجمعية في مدينة الإسماعيلية، العام ١٩٢٨، وقدّمت تصوراً مغايراً عن الإسلام والمسلمين لأتباعهم، ولأنّ كثيرين من الأعضاء انضمّوا للإخوان وهم متزوجون، فإنّ الجماعة كانت تطلب من العضو فيها أن يتحول هو وأسرته إلى الجماعة، فكان من المتوقع أن يظهر قسم للزوجات، يهتم بتثقيفهنّ إخوانياً، ليتلاءمن مع ما استجد على أزواجهن من تغيرات فكرية سلوكية، كما أنّ الإخوان في الإسماعيلية كانوا قد أنشؤوا مدرسة للفتيات، تقوم على التدريس فيها فتيات من الإسماعيلية.

كلّ هذا كان دافعاً لإنشاء فرقة للأخوات المسلمات؛ ففي ٢٦ نيسان (أبريل) العام ١٩٣٣، أعلن في الإسماعيلية عن إنشاء أول قسم للأخوات، ثم قرّر مكتب الإرشاد تكوين فرقة للأخوات المسلمات، تتبع المركز العام، وتشرف على جميع

تناقض أفعال الإخوان أقوالهم فيما يروجونه من أهمية مشاركة المرأة في الحياة السياسية

فرق الأخوات في مصر، واختار حسن البنا لقيادة هذه الفرقة؛ السيدة لبيبة أحمد (١٨٧٥ – ١٩٥٥)، وكان رئيس القسم هو الشيخ عبداللطيف الشعشاعي، والمشرف عليه من قبل مكتب الإرشاد الأستاذ صالح عشماوي، وكان أهمّ ما تميزت به الأخت لبيبة، الذي دفع المؤسّس حسن البنا ليجعلها مسؤولة الأخوات؛ أنها ترتدي الحجاب، وأنّها حجّت بيت الله الحرام ١٧ مرة، لكنّ نشاط الأخوات -كما يقول مؤرخ الإخوان جمعة أمين، وفق موقع «إخوان ويكي»- لم يبرز كقسم إلا العام ١٩٣٧ «حين تمّ تنظيم لقاءات لعموم المسلمات في المركز العام، في العتبة وحلوان.. وقد نشرت مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية خبر تلك اللقاءات الأسبوعية».

ثم سافرت الأخت لبيبة أحمد إلى السعودية، وقررت المكوث هناك، وفتر

«لا تملك النساء في قسم الأخوات حقّ تغيير المسؤول أو انتخابه بل هو حقّ أصيل للإخوان الذكور»

«بعد العام ٢٠١٣ تركز دور الأخوات على الدعم الإعلامي ونشر الإشاعات المضادة عبر الفيسبوك وشبكات التواصل»

نشاط الأخوات، وتقلصت المحاضرات والندوات، وكان أن شكّل المرشد القسم مرة أخرى، العام ١٩٣٨، برئاسة حلمي نور الدين، وبمساعدة صالح عشماوي، وقائدة فرقة الأخوات نفيسة حسين زهدي، وقد أُثيرت بعض المشكلات التنظيمية حول دور الرئيسة وأعضاء مكتب الإرشاد، وهل دور الأخت مجرد (مندوبة اتصال أم قائدة تملك كافة صلاحيات القيادة؟

إدارة ذكورية بحتة

وحين بدأت ممارسة الأخوات لدورهنّ في المحاضرات، ودخولهنّ، وخروجهنّ من المركز العام، أثيرت حفيظة بعض الإخوان من ذوي النزعة السلفية، وكي لا تتفاقم الأمور، تدخّل حسن البنا المؤسس، وأصدر لائحة الأخوات، العام ١٩٤٤، فأغلق باب المشكلات في المادة (٣) فقرة (أ): «يختار للإشراف على هذه الناحية من نواحي نشاط الشعبة، أخ تقيّ ورِع، معروف بين الناس بمتانة الخلق، وعدم تسرّب الشكّ إلى تصرفاته أو تأويلها»، وفي المادة (٣) فقرة (ز): «يمنع منعاً باتاً تكوين هيئات إدارية مستقلة للسيدات، حتى لا يشغلن أنفسهن بتشكيلات وتسميات، لا طائل تحتها، ولا خير فيها؛ بل يتفرغن تفرغاً كاملاً للاستفادة من الدروس وتطبيقها في منازلهنّ، على أولادهنّ وأخواتهن وإخوانهن وخدمهن، ونشرها خارج منازلهن، بين صديقاتهن وذوات قرابتهن، فيبتعدن بذلك عن أوضار الشكليات، مبتغيات وجه الله، منصرفات إلى الفائدة».

وورد في المادة (٦): «يختار مكتب الإرشاد العام من بين أعضائه رئيس القسم ووكيله، ومنهما، ومن المشار إليهم في المادة الخامسة، تتألف الهيئة المسؤولة عن هذا القسم في المركز العام لجماعات الإخوان المسلمين وشعبه، ولهذه الهيئة أن تستعين في أداء مهمتها ببعض الإخوان المتطوعين أو

مع عودة تنظيم الإخوان في الثمانينيات أعيد لقسم الأخوات تنظيمه بناء على لائحة ١٩٧٨

الموظفين، إذا لزم الأمر»، أي إنّ مهمة إدارة الأخوات منوطة بالإخوة، ولا شأن للأخوات بها.

وما سبق يعزّزه ما ورد في المادة (٧) وإن بطريقة مختلفة: «الصلة بين السيدات وإدارة الشعبة، بطريق المندوب المسؤول عن الإشراف على هذه الناحية، وهو يتصل بالفرق عن طريق المنظمات، وليس لأحد من أعضاء جماعات الإخوان المسلمين أن يتصل بهذه الفرق لشؤون تتصل بالدعوة فيها، إلّا عن طريق حضرته، كما أنه ليس لإحدى أعضاء الفرق أن تتصل بشعب الإخوان لشأن يتصل بالدعوة، إلا عن طريق المنطقة تحديداً للتبعات. انتهى»؛ نلاحظ من تركيز البنا على عدم اتصال الأخوات بالإخوة أمراً يحاول إخفاءه، لكنّه يظهر كشبح في خلفيات كلمات البنا.

واستمرّ عمل تنظيم قسم الأخوات في جماعة الإخوان ذكورياً بحتاً، وانحصر دور الأخوات في تجميع النساء، وحثّهن على حضور اللقاءات العامة، ومن تندرج في قسم الأخوات لها درجة الوكيلة أو المنظِّمة نفسها، ولا يملكن حقّ تغيير المسؤول أو انتخابه؛ بل هذا حقّ أصيل للإخوان الذكور.

ومع تحوّلات الإخوان في العمل، بداية من العمل المفتوح في فترة الثلاثينيات والأربعينيات، كان دور الأخوات هو تجهيز الأخت لتكون زوجة صالحة مناسبة

«أثار دخول الأخوات وخروجهنّ من المركز العام حفيظة بعض الإخوان ما دفع البنا إلى إصدار لائحة الأخوات»

للأخ الإخواني، ومع اتجاه الإخوان إلى العمل السرّي المسلّح، في الخمسينيات والستينيات، تحوّل دور الأخوات إلى رعاية أسر المسجونين، والشدّ على أيدي زوجاتهم وبناتهم، وتنظيم الزيارات...، ومع تحوّل الإخوان إلى العمل المفتوح، غير الرسمي، في السبعينيات، ضعف عمل الأخوات كثيراً، وانحصر في الدعوة للحجاب والالتزام الظاهري.

ومع بداية عودة تنظيم الإخوان في الثمانينيات؛ أعيد لقسم الأخوات تنظيمه وترتيبه، بناء على لائحة ١٩٧٨؛ التي أُقرَّت العام ١٩٨٤، ونظّمت عمل الأخوات، لكن تحت وصاية تامة من الإخوان الذكور، ومع توسّع الإخوان، ومرحلة استكمال المؤسسات في مرحلة التسعينيات وأوائل الألفية الثانية، كانت المرأة في الإخوان تقوم بحشد السيدات للتصويت الانتخابي، والوقوف أمام اللجان للدعاية لمرشحيهم، وتركز دور الأخوات في العمل التجميعي أكثر.

ولكثرة الأخوات الملتزمات بالتنظيم، بدأ تنظيم الإخوان في إنشاء لجان فرعية من القسم، مثل لجنة الزهرات، وهي التي تهتم بالفتيات في المرحلة الابتدائية وما قبلها، ولجنة للطالبات تهتم بالعمل مع الطالبات في المرحلة الإعدادية والثانوية، ولجنة الجامعة، وتهتم بعمل الأخوات الشابات؛ اللواتي انضممن للجامعة، وتشعّب التنظيم، حتى تمثلت كلّ هذه اللجان في كافة الشعب الإخوانية، والشعبة الإخوانية؛ هي أصغر تجمّع إداري للإخوان، يضمّ ما لا يقلّ عن أربعين أخ، بين عامل ومنتسب ومنتظم.

كيف يدار قسم الأخوات؟

يشكّل الإخوان في الشعبة مجلس شورى لهنّ، ومن مجلس شورى الإخوان في

في التسعينيات كانت المرأة في الإخوان تقوم بالحشد للتصويت والدعاية لمرشحيهم

الشعبة، يتمّ انتخاب المكتب الإداري لها، الذي يضمّ مسؤول الأخوات؛ أي إنّ مسؤول الأخوات في أول درجة إدارية يتم انتخابه من قبل الإخوة، وليس للأخوات أيّ دور في اختياره، ويقوم هو باختيار الأخت المناسبة لقيادة المجموعات، التي ستتواصل معه عبر زوجها أو أخوها، أو عبر زوجته، وفي حضورها، في كلّ مرة يجتمع مع الأخوات، يتمّ تقسم العمل عليهنّ بحسب احتياجات الجماعة التنظيمية، وليس بحسب احتياجات المجتمع المحلي المنتمين إليه، وتعدّ قضية الحجاب، وحفظ القرآن الكريم، هما أهمّ قضيتين تهتم بهما الأخوات.

في مرحلة ما بعد ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٣، وعزل الرئيس الإخواني محمد مرسي، ومع دخول الإخوان مرحلة الصدام المسلح مع الدولة الرسمية؛ وظّف الإخوان المسلمين الأخوات بشكل براجماتي، فلم يكتفوا باستخدامهنّ كمحفّز للإخوان للقيام بأعمال العنف؛ بل تم استغلالهنّ كدروع بشرية في المظاهرات، كما تعمّدوا أن يجعلوهنّ في المقدمة، حتى إذا سقطت منهن جريحات أو قتيلات، يضمن الإخوان جذوة الثأر لدى الذكور وتقبّلهم فكرة الانتقام.

في مرحلة ما بعد ٣٠ حزيران ٢٠١٣ وظّف الإخوان المسلمون الأخوات بشكل براجماتي

وبعد حسم الدولة المصرية تلك المواجهة لصالحها بعد فض اعتصامي رابعة والنهضة، لم يعد من المحتمل عودة الإخوان للحكم مرة أخرى، فتحوّل الإخوان من المواجهة الصريحة والمباشرة المسلحة مع الدولة، إلى مربع الدعاية المضادة، وتشجيع الآخرين على القيام بالدور المسلح، بالتالي؛ وفي هذا السياق أمكن رصد دورين أساسيين للأخوات؛ الأول يتمثل بالدعم الإعلامي المعنوي والإشاعات المضادة عبر الفيسبوك وشبكات التواصل، ونقل الأخبار إلى إخوان الخارج، والثاني: هو رعاية أسر الإخوان عبر التواصل مع الأخوات، زوجات الإخوة المسجونين، ثم محاولة تجميع أكبر عدد ممكن من الأخوات، في كيانات تغلب عليها المسحة الدينية، دون الدخول في تفاصيل سياسية، مثل دور التحفيظ، والجمعيات الخيرية، وغيرها.

«منع البنا النساء من تكوين هيئات إدارية مستقلة وحصر مسؤولية قسمهن بأحد أعضاء مكتب الإرشاد»

«مع بداية الثمانينيات أعيد لقسم الأخوات تنظيمه وترتيبه بناء على لائحة ١٩٧٨ التي أُقرَّت العام ١٩٨٤»

مناهج التربية عند الأخوات المسلمات

لم يكن للأخوات منهج تربوي خاصّ بهنّ؛ بل كانت محاضرات وندوات تتحدث عن السلوكيات الإسلامية، وتحضّ على الحجاب، ومساندة أزواجهنّ من الإخوان، وفي فترة الثمانينيات؛ تمّ إقرار منهج تربوي للأخوات، في سلسلة كتب رسمية تحت عنوان «رياض الجنة».

«رياض الجنة» رقم (١) كان للمبتدئات، ورقم (٢) لمن مضى عليهنّ فترة مع الأخوات، ورقم (٣) للطالبات في الثانوي، وهكذا..، والمتابع لكتاب «منهج التربية عند الأخوات»، يجده ينصبّ دائماً في تجهيز الفتاة كي تكون زوجة للعضو الإخواني.

هذا كان حال الجماعة في النظر إلى المرأة، ولا يبدو أنّه مرشح للتغير، طالما يحكم الإخوان تصورهم لأنفسهم، ولأخواتهم، بمنظور حسن البنا؛ الذي أورده في رسالة «المرأة المسلمة»؛ إذ يقول: «إنما يكون كمال المرأة ورقيّها، إذا استطاعت أن تكون فتاة عفيفة طاهرة، راجحة العقل، نبيلة العاطفة، سامية الغاية والمطمح، صحيحة الجسم والروح، وزوجاً مخلصة وفية، يجد فيها زوجها ما يملأ فراغ قلبه، ويصل إلى مقرّ الطمأنينة من نفسه، ويدبر شؤون الحياة في بيته، وأمّاً برّة صالحة تقدم للإنسانية رجالاً فضلاء، ذاك هو كمال المرأة الصحيح؛ الذي إذا وجدت السبيل إليه، فقد وفِّقت إلى كلّ خير».

الإخوان والفضاء الإلكتروني: كيف توظف الجماعة الإنترنت لتزييف الوعي؟

رحلت جماعة الإخوان المسلمين عن الحكم في مصر منذ قرابة عقد، وكرد فعل منذ ذلك الحين، قامت بوضع خطة متعددة المحاور، أهم محورين فيها هدم الدولة والسيطرة على مواقع التواصل الاجتماعي من خلال ما يسمى «اللجان الإلكترونية».

تمكنت أجهزة الدولة المصرية، بمساندة شعبية، من مواجهة المحور الأول بكفاءة، ولم تسمح بسقوط الدولة ولا ضعف مؤسساتها عن العمل، ولم يعد من الممكن عودة الإخوان للحكم في المدى المنظور، أما المحور الثاني فلا بد من الاعتراف أنّ الإخوان ما زالوا مسيطرين عليه، مما يعد خطراً على الوعي العام وخصوصاً لدى الشباب من الفئات العمرية الصغيرة التي تجهل أساليبهم.

سيطرة الإخوان على «السوشيال ميديا» تعود لإدراكهم بشكل مبكر لأهمية الإنترنت كأحد أهم الوسائل الجديدة للتواصل وتسريب المعلومات؛ ففي لحظات يمكن للفرد معرفة كل شيء عن حدث، ونظراً لاستسهال الشباب في تحصيل المعلومات الجاهزة، سايرهم الإخوان في ذلك لكن وفق أفكار الجماعة أو كما يريدون، لهذا انتشروا في الفضاء الإلكتروني يقدمون أفكارهم، وأصبح وعي الشباب مرهوناً بضغطة أخرى لتزييف وعيه وإدراكه، وبات الفضاء الإلكتروني ساحة لمعركة جديدة في حروب الوعي، وسيطرة العقول مع انتشار ما يسمى بـ«اللجان الإلكترونية».

«اللجان الإلكترونية حسابات وهمية تستهدف توحيد المعنى أو الفكرة التي يسعى الإخوان لترديدها خلال فترة محددة»

في هذا السياق، قامت الجماعة بتدريب خلايا إخوانية على مستوى عالٍ، لتتولى إعداد الملفات والدراسات، وتخطط الحملات الدعائية الموجهة، أو التي يريدون تمريرها للمجتمع، هذه الحملات تستهدف وعي شباب الأمة العربية والإسلامية بأفكار مغلوطة أو جرفهم لمعارك جانبية تستهلك طاقتهم، ولا تستهدف نشر رسائل الإخوان مباشرة أو الكتابة عن تاريخهم، أو إبراز شخصياتهم، فهذه مهمة لصفحات الإخوان الرسمية، أما اللجان فمهمتها الحديث العام، وعرض السلبيات والتركيز عليها، وفق تكتيكات المقاومات السلمية وخيار «حرب اللاعنف» بهدف تأجيج الصراعات الداخلية.

يستخدم الإخوان ثلاث فئات لنشر أفكارهم: الأولى اللجان الإلكترونية وهي حسابات وهمية تستهدف توحيد المعنى أو الفكرة التي يسعى الإخوان لترديدها خلال فترة محددة، ومنها حسابات نسائية تابعة للتنظيم تقوم بالترويج لما تريده الجماعة وهم عدد كبير ومؤثر، ثم باقي حسابات الإخوان ومحبيهم الذين يتلقون هذه «الهشتاغات» بالقبول ومن ثم نقل مضمونها لمحيطهم عبر الالتقاء المباشر سواء في المواصلات أو الجلسات العائلية أو مع الأصدقاء على المقاهي أو بين جلسات سمر الطلاب، مما يشعر المتلقي من كثرة ترديد هذه المعاني أو تلك الأفكار أنها حقيقية وصادقة.

تركزت آلية عمل الإخوان للسيطرة على الوعي العام لمرتادي الفضاء الإلكتروني، أولاً عبر سيطرتهم على منصات إعلامية متعددة الوثائق ومختلفة، تتبنى أكاذيب الإخوان وتتحدث بلسانها لتظهرها كأنها حقيقة مؤكدة. ثانياً تفعيل ما يسمى «غرف التصدي» وهو المصطلح الذي يستخدم للدلالة على تضخيم حدث أو فكرة أو تسليط الضوء عليها بما يسهم بتعزيز المعتقدات الفئوية وإيهام الأغلبية بأنها معتقدات سائدة عند الجميع، مثل مشاركتهم لـ«التريند»

«سيطرة الإخوان على «السوشيال ميديا» تعود لإدراكهم المبكر لأهمية الإنترنت كأحد أهم الوسائل الجديدة للتواصل وتسريب المعلومات»

المقصود على «تويتر» بأعداد كبيرة، وفي سبيل ذلك يحاول الإخوان إثبات ادعاءاتهم بطرق عدة، لعل أبرزها الفيديوهات المفبركة، التي تعود لسنوات ماضية بل وبعض هذه الفيديوهات يكون من خارج مصر!

حول خطورة اللجان الإلكترونية الإخوانية على الوعي العام العربي والإسلامي، يقول الكاتب والباحث السياسي طارق البشبيشي: «على مدار تاريخ الجماعة ارتكب الإخوان الكثير من الجرائم، لكن أكثرها خطراً وتأثيراً هو جرائم تشكيل الوعي لدى الفتيان والشباب»، مضيفاً في تصريحه لـ«حفريات»: الجماعة طالما استغلت أحدث الطرق والوسائل للوصول إلى الشباب، وشهد التنظيم بداية من الألفية الثانية بروز فكرة الكتائب الإلكترونية».

وأكد البشبيشي أنّ أصل تلك الميليشيات الإلكترونية بدأ على يد خيرت الشاطر، نائب المرشد الأول عندما كان مهدداً بالحبس على ذمة قضايا أمنية، «إذ كلف اللجان بالدفاع عنه شعبياً، ثم تطورت لتقوم بدور المهاجم، فقامت بمهاجمة المعارضين وتشويههم، وعندما قامت ثورة يناير روج الإخوان لأنفسهم بأنهم أكبر قوة يمكن أن تحمي مصر، فصدقهم البعض وانخدع بهم، وبالتالي سيطروا على مجلس الشعب، ثم عندما تولوا الحكم فشلوا في الترويج لإنجازات مندوبهم في الرئاسة محمد مرسي، باتت مصداقيتهم على المحك، ومع ثورة ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٣ لم يكن لدى الإخوان إلا لجانهم الإلكترونية لبث الإحباط والفوضى بعدما فشلوا في هدم الدولة».

وعن استغلال الإخوان للفضاء الإلكتروني داخلياً لصالح التنظيم، كتب عمرو فاروق على صفحته في «فيسبوك»: «لم يكتف الإخوان باستغلال التكنولوجيا في محاولة تشكيل الوعي للشباب بل استخدموه لضبط الجماعة وعقد اللقاءات

« بات الفضاء الافتراضي ساحة لمعركة جديدة بحروب الوعي وسيطرة العقول مع انتشار لجان الإخوان الإلكترونية»

التربوية»، موضحاً: «جماعة الإخوان تنقل اجتماعاتها ولقاءاتها الفكرية والتنظيمية مع عناصرها وقياداتها من داخل المساجد والبيوت والشقق السكانية إلى ساحة الفضاء الإلكتروني، للهروب من أزمة الملاحقات الأمنية، وتلجأ إلى تطبيقات متنوعة مثل: ClickMeeting Webinars، وZOOM Cloud Meetings، وGoToWebinar، وEasyWebinar».

وأضاف فاروق: «يتم حالياً عبر هذه التطبيقات إجراء مجموعة من المحاضرات المعنية بتصحيح الرؤية، والإشكاليات الفكرية والسياسية التي وقعت فيها الجماعة خلال تصدِّرها للمشهد السياسي في مصر عقب أحداث ثورة يناير ٢٠١١، وسقوطها شعبياً وسياسياً، وتفككها تنظيمياً، منذ ثورة يونيو ٢٠١٣، فضلاً عن المحاضرات تناولت الحديث حول مفاهيم وحدة ولمّ الصف الإخواني، وكيفية خروج الجماعة من كبوتها، وإعادة تقديم نفسها مرة أخرى للرأي العام على أنها كيان سياسي، ودراسة قدرتها على البقاء والانتشار وانسجامها مع الشارع المصري، ومسارات توظيفها للإمكانيات والظروف المتاحة في ظل النظام السياسي الحالي».

إنّ معركة الإخوان للسيطرة على الفضاء الإلكتروني لم تكن سهلة، ويمكن القول إنها مرت بثلاث مراحل، المرحلة الأولى: أولاً بالدفاع عن الإخوان؛ بعد استبعادهم من الحكم، فقد شككوا في صحة المظاهرات التي طالبت بعزل محمد مرسي، فقد قاموا باتهام الدولة وأجهزتها بارتكاب مذابح ضدهم وهم عزّل وأبرياء، وانصبت جهودهم على التأكيد على شرعية الرئيس المعزول، وعدم صحة تغييره حتى بالمظاهرات، واعتبروا انحياز القوات المسلحة للشعب المتظاهر انقلاباً.

« البشبيشي: ارتكب الإخوان الكثير من الجرائم لكن أكثرها خطراً وتأثيراً إعادة تشكيل وعي الفتيان والشباب»

المرحلة الثانية: وهي السعي لهدم أجهزة الدولة عبر الهجوم على القوات المسلحة باتهامهم بجرائم في سيناء، وتصوير ما تم من تطهيرها من بؤر الإرهاب المسلح متعدد الجنسيات بأنه هجوم على أهالي سيناء الابرياء، وكافة الأخبار الملفقة عن سيناء وما يحدث فيها.

أما المرحلة الثالثة الحالية: فهي تستهدف التأكيد على مظلومية الإخوان والترويج أنّ الدولة تقتلهم ظلماً، أو التمهيد لهم بهشتاغ «ماذا تريد أن تقول للإخوان؟» وهو هشتاغ يحيي وجود الإخوان في الفضاء الإلكتروني عبر تكليف فريق يدافع عنهم بطريقة ناعمة، بأن يبدأ بالهجوم على مرسي وأنه لم يكن يصلح للحكم، ثم الانتقال للفكرة الأساسية وهي أن ما يحدث مع الإخوان عقاب قاسٍ وظالم وأكبر من مجرد خلاف سياسي، فيؤسسون وعياً زائفاً إضافة إلى الكثير من المغالطات المنطقية.

ومما ساعد الإخوان في مهمتهم التخريبية عدم وجود محتوى إعلامي مقابل مهني محترف للرد عليهم عند ذات الفئات المستهدفة، لهذا ليس من الحكمة الاكتفاء بالحلول الأمنية في المواجهة، بل يجب كشف وفضح محاولاتهم للتسلل لعقول الشباب، بكشف وفضح الوعي الإخواني الزائف وإزاحته بمشروع قومي توعوي واقعي، يلبي احتياجات الشعوب والشباب على وجه الخصوص.

البشبيشي: الميليشيات الإلكترونية بدأت على يد خيرت الشاطر عندما كان مهدداً بالحبس على ذمة قضايا أمنية

مشاعل البنا تحرق «الإخوان»

مرّ تاريخ الإخوان المسلمين بمحطات كثيرة، صعوداً وهبوطاً، وفي كلّ الأحوال؛ يحرص الإخوان على بقاء رمزية حسن البنا المقدسة بعيداً عن المراجعات، لإدراكهم أنّ البنا ليس مجرد مؤسس للجماعة وصانعها؛ بل هو الركيزة الأساسية لإعادة تدوير الجماعة مرة أخرى.

يؤمن الإخوان بقدرة البنا على استشراف المستقبل، وبأنّه وضع لهم علامات ومشاعل يسترشدون بها في مسيرتهم، ويؤمنون أيضاً بأنّ هذه العلامات، إذا اتبعوها ضمنوا السلامة، مع العلم أنّهم، في كلّ مرة يتبعون علامات البنا، يعودون من حيث بدأوا.

هذه العلامات دوّنها البنا في رسالته المعنونة «بين الأمس واليوم»، التي صدرت مطلع العام ١٩٤٣، وتضمّنت هذه الرسالة مقطعاً يجسّد رؤية البنا، ومن ثم رؤية الإخوان، للآخر، يقول فيه البنا:

«في كلّ الأحوال يحرص الإخوان على بقاء رمزية حسن البنا المقدسة بعيداً عن المراجعات»

«أحبّ أن أصارحكم بأنّ دعوتكم ما تزال مجهولة عند كثيرين من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن؛ فما تزالون مجهولين، تمهّدون للدعوة، وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد. سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كلّ حكومة أن تحدّ من نشاطكم، وأن تضع العراقيل في طريقكم».

ويتابع البنا: «وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يلصقوا بها كلّ نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة، معتمدين على قوتهم وسلطانهم، ومعتدّين بأموالهم ونفوذهم (...) وستدخلون بذلك، بلا شكّ، في دور التجربة والامتحان، فتُسجنون وتُعتقلون، وتُنقلون وتُشرَّدون، وتُصادر مصالحكم، وتُعطَّل أعمالكم، وتُفتَّش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان (...) ولكنّ الله وعدكم من بعد ذلك كلّه نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين».

في هذا النصّ وضع البنا علامات وإشارات، ربما يجيب تفكيكها على سؤال: لماذا يتعالى الإخوان على الشعب؟ ولماذا يتهمون الجميع بعدم الفهم؟

العلامة الأولى: ماذا يحدث إذا علم الناس حقيقة دعوة الإخوان؟

يقول البنا فيها: «أحبّ أن أصارحكم بأنّ دعوتكم ما تزال مجهولة عند كثيرين من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستتلقون منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات».

يمكن ملاحظة المغالطة التي يتبعها البنا مع أتباعه، فهو يقول لهم إنّ جماعتهم ما تزال مجهولة، والمفترض أنّ هذا الجهل يسبّب العداء، فالإنسان غالباً عدوّ ما يجهل، لكنّه يعكس الوضع ويقول لهم: «ويوم يعرفونها ويدركون مراميها»، ماذا سيحدث؟، خصومة شديدة وعداوة قاسية؟! ولم يخبرهم البنا بسبب هذه الخصومة ولا تلك العداوة، وهل من الطبيعي أن يعادي الناس الدعوات الصالحة، أم الدعوات الخبيثة؟

العلامة الثانية: جهل الشعب بالإسلام:

ثم يستكمل البنا علاماته: «وسيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم»، يصف البنا الشعب هنا بالجهل، لكنّه يستدرك بجملة «بحقيقة الإسلام»، لتكون منفذاً إذا ما طلب منهم تفسير حقيقة الإسلام، في الواقع هذه الجملة هي بداية التكوين العقلي للفرد الإخواني؛ إذ إنّها ترسّخ في وجدانه أنّ الناس، كلّ الناس، لا يفهمون حقيقة الإسلام كما يفهمها الإخواني، وهذا ليس عيب الإخوان، لكنّه عيب الناس، وربما هذا يعطينا تفسيراً لاستعلاء الفرد الإخواني على الآخرين.

العلامة الثالثة: عداء المتدينين:

«وأهل التدين هم الأفراد الذين لا ينتمون لا لجمعيات أو لجماعات، بسطاء حريصون على رضى الله والتمسك بما هو معلوم من الدين، سواء في العبادات أو المعاملات»، لك أن تتخيل أنّ البنا عدّهم أول عقبة في طريق الإخوان المسلمين، وأنهم أول من سيعادي الإخوان؟! هل من الطبيعي أن يعادي أهل التدين الإسلامي دعوة إسلامية؟ وأيضاً: لم يقدم لنا سبباً لعداء

«بدل دعوة الإخوان للتأكّد من الشبهات والتنزه عنها كان البنا يصف كلّ نقد لجماعته بالاتهام الظالم»

أهل التدين للإخوان، يبدو أنّ البنا كان يخشى من أهل التدين، فعمل على وضعهم على قائمة من يعادي الدعوة الإخوانية، كحركة استباقية يصوغ بعدها العقل الإخواني، بعيداً عن أهل التدين الطبيعيين.

العلامة الرابعة: عداء العلماء ورجال الدين

بعد أهل التدين يأتي العلماء الرسميون؛ العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين يحملون مشعل الفهم والحكمة، وضّح البنا أنّهم سيستغربون فهم الإخوان للإسلام، هنا يوهم حسن البنا أفراده بأنّ هذا الاستغراب من الجهل رغم أنّهم علماء! وكالعادة؛ لم يوضح لنا حسن البنا سبب هذا الاستغراب، أو سبب هذه العداوة، إلّا عدم الفهم وجهل العلماء! هذا ما قرّره حسن البنا، وهذا ما ترسّخ في وجدان الإخوان المسلمين، وربما هذا ما يفسر العداء الشديد للعلماء الرسميين من قبل الإخوان.

العلامة الخامسة: حقد الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان

هنا ينقل البنا أتباعه إلى المواجهة مع الحكومات، وبزعم أنهم يحقدون عليهم، وأيضاً لم يذكر سبب الحقد، مع العلم بأنّ الإخوان، في وقت كتابة هذه الرسالة، كانوا في خدمة حزب السعديين، وكانوا ينالون رعاية خاصة، حتى أنّ أحمد باشا ماهر، سمح لهم بتكوين جيش من الجوالة بزيّ عسكري، رغم معارضة هذا في قانون الكشافة، بأن يتّبعوا أيّة هيئة، لكن ربما ظلال حادث ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢، وما تبعها سياسياً، دفع البنا إلى أن يتوقع الصدام مع الحكومات، فأراد تجهيز وجدان الإخوان لذاك الصدام، بجعله ليس صراعاً سياسياً، ولكن منبته الحقد والكراهية، ولعلّ استكمال تفاصيل عداء الحكومات يكشف مكنون البنا؛ إذ يستكمل بقوله: «وستقف في وجوهكم كلّ الحكومات، على السواء، وستحاول كل حكومة أن تحدّ من نشاطكم، وأن تضع العراقيل في

طريقكم، وسيتذرع الغاضبون بكلّ الطرق لمناهضتكم، وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة (يقصد الوفد) والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال، وإليكم بالإساءة والعدوان».

لم يتوقف أحد أمام كلّ هذه الأصناف التي ستعادي الإخوان فور معرفتهم بحقيقة أهداف الدعوة، لم ينتبهوا إلى أنّه لم يذكر أيّة فئة ستقف مع الإخوان! يبدو لي أنّه أراد أن يغرس في وجدانهم عدم الثقة بأحد غيرهم.

ثم يخدعهم «حسن البنا» مرة أخرى، ويحوّل موجات النقد التي يقدمها لهم العلماء وأصحاب التدين والحكومات، ليصحّحوا الطريق، إلى عبارات سلبية تجعل الانتقادات والنصائح والمراجعات ليست إلا مجرّد غبار الشبهات وظلم الاتهامات.

العلامة السادسة: غبار الشبهات

يقول حسن البنا: «وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يلصقوا بها كلّ نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة، معتمدين على قوتهم وسلطانهم، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة:٣٢)».

نلاحظ هنا؛ أنّ البنا رسّخ في أذهان أتباعه أنّ كلّ ملاحظة، أو اعتراض، أو نقد، هو بمثابة غبار شبهات، وسينقشع بعد أن تظهر الحقيقة، بدلاً من دعوتهم إلى التأكّد من هذه الشبهات والتنزه عنها، نجده يصف كلّ نقد بأنّه اتهام ظالم، ومحاولة رخيصة لإلصاق كل نقيصة في الإخوان، وكانت النتيجة أن ترسّخ في وجدان الإخوان المسلمين، الجماعة والأفراد، أنّ كلّ منتقد لهم فكرياً، أو في حدود الوسائل، إنّما هو ظالم، وهذه الاتهامات هي غبار شبهات ليس لها من ظلّ من الحقيقة.

العلامة السابعة: الابتلاء

بعد أن وضع البنا حاجزاً نفسياً بينهم وبين كلّ أصناف الشعب، وبينهم وبين الحكومات والزعماء، وبعد أن حول التساؤلات المنطقية إلى غبار شبهات وحقد، ها هو يبدّل مفهوم العقوبات وملامح الفشل إلى ابتلاء وقمّة نجاح: «وستدخلون بذلك، بلا شكّ، في دور التجربة والامتحان، فتُسجنون وتُعتقلون، وتُنقلون وتُشرَّدون، وتُصادر مصالحكم، وتُعطَّل أعمالكم، وتُفتَّش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان..».

هذا النصّ الفريد في تحويل مظاهر الفشل إلى مظاهر نجاح، ومن أفراد المجتمع، حقل الدعوة والظهير الشعبي، إلى أصناف من الأعداء، ومن علامات عدم صحة الطريق، والتي كانت كافية لأن تثير فيهم المراجعة والتقييم والتقويم، إلى علامات على صحّة الطريق وصوابية المنهج والتمسك بالطريق المزيف، ثم يختم النص بسؤال: «فهل أنتم مصرّون على أن تكونوا أنصار الله؟».

صنع حسن البنا هنا نموذجاً فريداً في وجدان وعقول أتباعه، جعلهم يؤمنون بأنّهم وحدهم على الصواب، وباقي أفراد المجتمع على خطأ؛ بل هم في حالة عداء حتمي مع الإخوان، وبأنّ السجن والتشريد هو دليل صحة الطريق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هكذا شكل العام ١٩٣٨ تحولاً في عمل الإخوان.. هذا ما حصل

دخل الإخوان المسلمون في الحياة السياسية في مصر بشكل مفاجئ، فأفسدوا قيم العمل السياسي، بداية من رفض الأحزاب، تحت مزاعم أنّ الإسلام لا يقبل الحزبية، أو التقليل من شأن الدستور، ولأنّ أفكارهم ماتزال تعمل في المجتمع، وتغتال كلّ فرصة للوحدة الوطنية، وتقضي على أيّة بارقة أمل لنشر الوعي واستعادة الذات، ومايزال خطر الإخوان قائماً، فرض هذا واجب البحث لكشف الأسباب الغامضة التي كانت وراء تحولّهم من العمل الدعوي البحت إلى العمل السياسي، وكشف الشخصيات والهيئات التي كانت وراء هذا التحوّل.

لفهم طبيعة الجماعة؛ فإما أنّها أداة في أيدي الآخرين، وعندها يصبح الحديث عن برامج تعديل أفكارهم أو دراسات لتوقع خطوتهم المستقبلية عبثاً في عبث، ومن الأفضل للحكومات التي تواجه الإخوان التعامل مباشرة مع من يديرونهم، أو هي جماعة لها طبيعتها الخاصة لكنّها تخضع لنظريات العمل الجماعي، فيمكن التنبؤ بردود أفعالها ووضع خطة للتعامل معها، وفق تلك النظريات العملية، لذا علينا دراسة لحظة اشتباكهم مع عالم السياسة، الذي بدأ العام ١٩٣٨، لكن علينا العودة إلى العام ١٩٣٥، لما له من أهمية في تاريخ تلك الحقبة.

نحن الآن في شتاء العام ١٩٣٥، تحديداً ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر)، ذكرى عيد الجهاد، الموافق ١٦ شعبان ١٣٥٤ هجرية، والأجواء ملتهبة في الشارع المصري، نظراً لفشل المفاوضات، وإيقاف العمل بالدستور، والصراع بين القوى الثلاث الرئيسة في مصر على أشدّه، وهي «السفارة البريطانية»، و«الملك بأحزابه»، و«الوفد»، صاحب الشعبية الطاغية.

في هذه الأجواء المعبأة والمحتقنة، صرّح صمويل هور، وزير الخارجية

«البنا صرّح بأنّ مهمَّته هي محاربة الأحزاب و «الوفد» كان المقصود لشعبيته الطاغية»

البريطاني؛ بأنّ «الحكومة البريطانية نصحت بعدم إعادة دستور ١٩٢٣ أو دستور ١٩٣٠؛ لأنّه ثبت عدم صلاحية الأول لمصر، والثاني يتعارض مع رغبات المصريين».

هذا التصريح جرح مشاعر المصريين الوطنية، وكان طلبة الجامعة أول المعترضين على هذا التدخل السافر، فعقدوا اجتماعاً داخل حرم الجامعة في الجيزة، ودانوا فيه موقف بريطانيا، ثم خرجوا في مظاهرة سلمية كبيرة، فتصدّى لهم الأمن، طالباً تفريق المظاهرة، وعندما رفضوا أطلق عليهم النار فأصيب طالبان إصابة خطيرة وتعرض عدد آخر منهم لإصابات طفيفة.

في اليوم التالي، خرج الطلاب في مظاهرة نحو القاهرة، ولكنّ الأمن كان قد حشد قواته لمنعهم من الزحف إلى وسط العاصمة، وبحسب ما ذكره د.رؤوف عباس وآخرون، في كتاب «جامعة القاهرة-١٠٠ عاماً من العطاء»؛ فإنّ قوات الأمن حاصرت نحو ٣٠٠ طالب من المتظاهرين فوق «كوبري عباس»، فيما سيعرف بعد ذلك «بمذبحة كوبري عباس الأولى»، وأطلق عليهم النار، فقتل منهم طلبة كثيرين.

وعلى خلفية هذه الأحداث أصدر أحمد لطفي السيد، مدير الجامعة، قراراً بتعطيل الدراسة لمدة أسبوع، ثم تكررت المظاهرات، فقرّر إغلاقها أسبوعاً آخر، فازدادت المظاهرات اشتعالاً، فقرر إيقاف الدراسة إلى أجل غير مسمى، وذلك في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥، فعقد الطلبة مؤتمراً عامّاً لهم ، يوم الأربعاء الموافق ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) الموافق الأول من رمضان، وكونوا «اللجنة العليا للطلبة».

ظهر الطلبة كقوة ثورية فعالة على الأرض، قادرة على تحريك المظاهرات وتغيير الرأي العام، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الانخراط في العمل

«عندما نظم «الوفد» مظاهرة هتف مؤيدوه فيها «الشعب مع الوفد» ردّ الإخوان بمظاهرة هتفوا فيها «الله مع الملك»»

السياسي، وإعادة تجربة الوفد من جديد، فقد أظهروا قدرة بالغة على توحيد الأحزاب، عندما طاف أعضاء «اللجنة العليا للطلبة» على زعماء الأحزاب السياسية ودعوهم لتكوين لجنة وطنية لإنقاذ البلاد والتمسّك بدستور ١٩٢٣.

في الوقت الذي انشغل فيه الطلبة بالردّ على المحتل، كان حسن البنا في وادٍ آخر؛ إذ كان كلّ ما يشغله حشد الناس ليستمعوا إلى خطبته في دار الإخوان المسلمين! فقد كانوا وهم في مقرهم بالناصرية بالسيدة زينب مجهولين ذائبين في المجتمع، حاول البنا كثيراً تعريف المجتمع القاهري بجمعيته، بكلّ الطرق، لكنّه فشل، ولم يفلح في جذب أعداد له.

لك أن تتخيل أنّ أغلب الشعب يعتصره الألم ومنشغل بالوضع السياسي ومستجداته ومآلاته، ووحده حسن البنا وجماعته المغمورة، لا يبدون أيّ اهتمام! لا بالدستور ولا بالشهداء، حتى أنّنا لم نجد في مجلتهم «الإخوان المسلمون» أيّة إشارة لهذا الحادث، بالإدانة أو حتى بالمواساة.

فبماذا كانوا مشغولين يا ترى؟ كانوا بعد الانتهاء من الصلاة في مسجد السيدة زينب في رمضان يخرجون في صفوف، يتقدّمهم المرشد حسن البناء، وهو ينشد أناشيد المولد النبوي، والإخوان يرددون وراءه بصوت جهوري، وكان الناس يلتفون حولهم، ويسيرون معهم، حتى إذا ما اقتربوا من المركز العام للإخوان المسلمين، لم يدخل معهم إلا القليل جداً، بحسب ما جاء في كتاب «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ»، لمحمود عبد الحليم، الجزء الأول، ص ١٠٩، فإذا كان واقع الإخوان هكذا، فمن زجّ بهم في أتون العمل السياسي؟ ومن

المستفيد من دخول الإخوان إلى عالم السياسية وهم ليسوا سياسيين أساساً؟

«تفاني الإخوان في نشر حكايات مؤثرة عن الملك الشاب فاروق «المتديّن» فاقت الجميع»

هل هم الإنجليز؟

ليس من المستبعد استخدام الإنجليز للإخوان، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، لكن لماذا يستخدمونهم؟ هل لأنّ العالم دخل العام ١٩٣٦، وهو مشدود الأواصر بعد أن تعالت أصوات الفاشيين والنازيين، وهم يدفعون العالم إلى حرب عالمية ثانية؟ هل لأنّ مصر فيها مناصرون لهم؟ هل تحتاج بريطانيا إلى مواجهتهم بجماعات أخرى؟ ربما.

لكنّ المؤكد أنّ إنجترا أدركت أنّها والعالم مقبلون على أزمة كبرى، ويحتاجون إلى تهدئة الأجواء المصرية بأقل الخسائر، فدخلوا في مفاوضات للاستقلال والجلاء، انتهت بمعاهدة ٣٦ الشهيرة، والتي بموجبها حصلت مصر على استقلالها، وبموجبها أيضاً سيتم انتقال الجنود الإنجليز إلى منطقة القناة، وهذا انتصار للمفاوض المصري المتمثل في حزب الوفد، العدو التقليدي للإنجليز؛ فهل سيترك الإنجليز عدوّهم التقليدي يتمدّد ويتوغّل وينتصر؟!

يقول الدكتور عبد العظيم رمضان، في كتابه «الصراع بين الوفد والعرش» ص ٢٠: إنّ «الإنجليز كان يسعون إلى تشويه سمعة الوفد»، من المحتمل أن يوكل الإنجليز هذه المهمة لفصيل جديد في عالم السياسة، يسرق الأضواء من حزب الوفد، حتى لا يظهر كأنّه بطل، فتزداد شعبيته ويصعب التعامل معه، ويكون في نفس الوقت قادراً على تفتيت الصفّ الوطني بشعاراته، فهل فشل حزب «مصر الفتاة» في مهمته ضدّ الوفد؟ وخصوصاً بعد سلسلة مقالات أحمد حسين اللاذعة، التي جاءت بعنوان «برنامجنا السريع لإسقاط صاحب المقام الرفيع»، التي لم تحقق الهدف منها، بحسب قول د.علي شلبي، في كتاب «مصر الفتاة ودورها في الحياة السياسية» ص ١٠٠، فهل قام الإنجليز بدفع الإخوان للاشتباك في عالم السياسة لتشويه الوفد؟ ربما! لكنّ البنا صرّح بأنّ مهمَّته هي محاربة الأحزاب، والوفد هو المقصود لشعبيته الطاغية».

أم هو الملك والقصر؟

من المحتمل أن يكون الملك والقصر هما اللذان زجّا بالإخوان في عالم السياسة؛ ففي نيسان (أبريل) ١٩٣٦؛ مات الملك أحمد فؤاد الأول، مات وهو أكثر ملوك أسرة محمد علي استبداداً بالمصريين وخضوعاً للإنجليز، مات مكروهاً من الشعب، وخلفه على العرش ابنه فاروق الأول، ملكاً تحت الوصاية.

ومع الملك الجديد توقّع المصريون غداً مشرقاً، يتحررون فيه من استبداد القصر واحتلال الإنجليز، لهذا حاول علي ماهر باشا تقديم الملك الشاب كشخصية شعبية، فقدّمه لصلاة الجمعة في مساجد الإسكندرية والقاهرة، وحضوره المناسبات الرياضية المختلفة، والزيارة الملكية للوجه القبلي البعيدة عن المراسيم التقليدية الملكية لإرضاء الجماهير، رغم أنّ صحفاً كثيرة قامت بهذه المهمَّة، لكنّ تفاني الإخوان في نشر حكايات مؤثرة عن الملك الشاب المتديّن فاقت الجميع.

ففي كتاب «فاروق وسقوط الملكية في مصر»، ص ٦٩٨، تقول لطيفة سالم: «منذ البداية تولّت جريدة الإخوان مهمة تعبئة الرأي العام، ولفت نظره إلى خطوات فاروق الدينية، تبيّن كيف ملك قلوب رعيته بغيرته على الدين، وتصف استقبال الجماهير له، وهو في طريقه إلى مسجد أبي العلاء لتأدية الصلاة ودعواتهم له وهتافاتهم بحياته، وتنقل بعض اللقاءات وتأتي بالقصص التي تنمّ عن أنّ هناك أبناء فاسدين قد استقاموا وعرفوا طريق المساجد وانصرفوا إليها، والسبب أنّهم اتخذوا من الملك الأسوة الحسنة، بالتالي عدّته المثل الأعلى لأمّته».

وأيضاً تذكر سالم: «يكتب حسن البنا تحت عنوان «حامي المصحف ليثبت المعنى وينشر الدعوة»، فيذكر أنّه أثناء رحلة فاروق للصعيد أخرج أحد المرافقين له فصّاً أثرياً، وقال إنّه الذي يجلب له الحظّ والخير، وأخرج مفتاحاً، وادّعى مثل هذه الدعوى، فما كان من فاروق إلا أن أخرج مصحفاً، وقال: إنّ «هذا هو مفتاح كلّ خير عندي، ويصل زعيم الإخوان إلى أنّه إذا كان قد ضمّ القرآن إلى قلبه، ومزج به روحه؛ فإنّه لا يخدم نفسه في الدنيا والآخرة فحسب، لكنّه بذلك يضمن لمصر حسن التوجيه ويحول بينها وبين العناد ويقيّمها على أفضل المناهج، ويسلك

الإخوان المسلمون في مجلتهم لم يذكروا مذبحة الطلبة العام ١٩٣٥ بالإدانة أو حتى بالمواساة

بها أقرب الطرق إلى كلّ خير، وهو في الوقت نفسه يضمن ولاء أربعمئة مليون من المسلمين في آفاق الأرض، تشرئب أعناقهم وتهفو أرواحهم إلى الملك الفاضل الذي يبايعهم على أن يكون حامي المصحف فيبايعونه على أن يموتوا بين يديه جنوداً للمصحف، وأكبر الظنّ أنّ الأمنية الفاضلة ستصير حقيقة ماثلة، وأنّ الله قد اختار لهذه الهداية العامة الفاروق، فعلى بركة الله يا جلالة الملك، ومن ورائك أخلص جنودك».

والعام ١٩٣٧، بعد رفع الوصاية عن الملك، نشبت معركة بين الوفد والقصر على طريقة تنصيب الملك دستورياً؛ انحاز الشعب للنحاس والوفد، وانحاز الإخوان للملك، يرصد هذا الانحياز محمد عودة في كتابه «كيف سقطت الملكية في مصر» ص ٢٢٤: «فعندما نظم الوفد مظاهرة هتف مؤيدوه فيها (الشعب مع الوفد)، (النحاس زعيم الأمة) ردّ الإخوان بمظاهرة هتفوا فيها: (الله مع الملك)، واحتشدوا في قصر عابدين»، وزيادة في الولاء للملك أقاموا مؤتمرهم السنوي الرابع يوم الجلوس على العرش، العام ١٩٣٧، ودام الاحتفال طوال اليوم، وفي الليل تجمّع الإخوان حول القصر وأعلنوا البيعة للملك، وظهرت فرق الجوالة».

وفي بداية العام ١٩٣٨، أقال الملك فاروق وزارة الأغلبية (الوفد)، وأصبح يهيمن على مقاليد الحكم عبر حكومة محمد محمود باشا، التي ضمّت أقطاب الأقلية! وفي العام نفسه؛ عقد الإخوان مؤتمراً للطلاب، وفي هذا المؤتمر صرح حسن البنا بمطالبته بإلغاء الأحزاب، بقوله: «أيّها الإخوان؛ لقد آن الأوان لأن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية في مصر، وأن يستبدل به نظام تجتمع به الكلمة، وتتوحّد به جهود الأمة حول منهاج إسلامي صالح تتوافر على وضعه وإنفاذه القوى والجهود».

فهل كان نزول البنا والإخوان لعالم السياسة من باب النضال لمحاربة الاستعمار، أو الدعوة لإقرار دستور للبلاد، أم كان انحيازاً للقصر ومحاربة الوفد، وقضاءً على الحياة النيابية والحزبية في مصر؟!

دخول الإخوان في عالم السياسة بطريقتهم، سمح لهم بالانتقال من مقرّ فقير في السيدة زينب، إلى مقرّ أكثر رحابة في العتبة، وبعد أن كانوا لا يملكون إلا خمسين شعبة في مصر، العام ١٩٣٣، صار للإخوان أكثر من ٣٠٠ شعبة كاملة في مصر العام ١٩٣٨!

الإخوان المسلمون وصناعة وهم الأيديولوجيا المقدّسة

تعرّف الأيديولوجيا بأنّها نسق من الأفكار يحدد السلوك السياسي والاجتماعي، أو يبرر خضوع جماعة أو طبقة ما، لجماعة أو طبقة أخرى، مع إضفاء نوع من الشرعية على هذا الخضوع، فهل يمكن بحسب هذين الاعتقادين أنّ الإسلامويين ينظرون إلى أفكارهم على أنّها أيديولوجيا فعلاً؟ الواقع ينبئ بغير ذلك، ولن يكون من قبيل المبالغة إذا قلنا إنّ نسبة لا يُستهان بها منهم يعدّونها (بما فيها قناعاتهم السياسية) ديناً ولا يرضون لها توصيفاً أقل من ذلك ويرفضون اعتبارها نمطاً من الأيديولوجيا التقليدية.

أما سبب هذا الرفض عند بعض الإسلامويين، فلأنّ الأيديولوجيات تمثل تفاعل الإنسان مع متطلبات الحياة وتطوراتها والصراع البشري والتجربة البشرية البحتة؛ أي هي أفكار متغيرة مرتبطة بالزمان والمكان، وهو ما يرفضه الإسلامويون كلهم؛ باعتبار أيديولوجيتهم الإسلامية تفاعلاً للبشر مع النص القرآني والنبوي الذي لا يخضع للتطور أو التبديل مثلما الحال مع الأفكار البشرية.

كل ذلك بهدف إضفاء القدسية على أفكارهم ووسائلهم، وتحصينها من النقد والمساس، وبهذا تتحول لتكون في النهاية متحكمة في سلوك البشر، أو تمنح السلطة المطلقة لفئة على فئة، بما يجعل الأتباع يؤمنون باستحالة سقوط أو هزيمة هذه الأيديولوجيا، ومن يحاول فلا شكّ في أنّه إما كافر أو مناهض للإسلام أو كاره له، وأول من كرّس هذا النسق جماعة الإخوان المسلمين، متبعين ثلاث مراحل.

تمثلت المرحلة الأولى في تحديد الأفكار الرئيسة للمشروع؛ إذ لم تتجمع أفكار الإخوان ولم تنضج مرة واحدة؛ بل كانت نتيجة لتفاعلات اجتماعية وسياسية، واجهت حسن البنا المؤسس، فكان كلما واجهه موقف أكبر من إمكانياته انتقل

«حرص البنا على جعل أفكاره تبدو كتمثيل لأوامر الله وكالمعادل الموضوعي لسيرة الرسول عليه السلام»

من مربع إلى آخر، أوهم الناس أنه كان صريحاً، وأنه قال لهم إنه سينتقل هذه النقلة في وقت ما، وأنّهم هم من لم يفهم مقصده كما يتضح في رسالة «إلى أي شيء ندعو الناس» حيث يقول: «قد تتحدث إلى كثير من الناس في موضوعات مختلفة، فتعتقد أنك قد أوضحت كل الإيضاح، وأبنت كل الإبانة، وأنك لم تدع سبيلاً للكشف عما في نفسك إلا سلكتها، حتى تركت من تحدثهم على المحجة البيضاء، وجعلت لهم ما تريد بحديثك من الحقائق كفلق الصبح أو كالشمس في رابعة النهار، كما يقولون، وما أشدّ دهشتك حين ينكشف لك أنّ القوم لم يفهموا عنك، ولم يدركوا قولك». ولهذا انتقل من مربع الدعوة الصرفة من عام ١٩٢٩، إلى العمل السياسي عام ١٩٣٨، الذي أسس فيه العمل السري، ثم تحالفاته مع القصر مرة، ومع الأحزاب مرة، ومع الجمعيات مرة أخرى، كلّ هذا شكّل رصيداً مربكاً للمتابع لنشوء فكر الإخوان وتطوره.

أما المرحلة الثانية: صبغ هذه الأفكار بصبغة إسلامية؛ إذ حرص البنا على أن يجعل أفكاره تبدو كأنّها تمثيل لأوامر الله في القرآن، وأنها هي المعادل الموضوعي لسيرة الرسول، عليه السلام، في العصر الحديث، ولعلّ أقرب مثال على هذا؛ ما قاله في رسالته «دعوتنا»: «ونحبّ أن يعلم قومنا إلى جانب هذا أنّ هذه الدعوة لا يصلح لها إلا من حاطها من كل جوانبها، ووهب لها ما تكلفه إياه من نفسه وماله ووقته وصحته، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة:٢٤)»، وهنا حسن البنا جعل قول الله المنزل في حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله يساوي الانتماء للجماعة، وهذا التلبيس من أجل صبغة إسلامية مزعومة، كان في حاجة إليها، والأمثلة كثيرة يمكن مراجعتها في رسائل المرشد الأول.

«يؤمن الإخوان المسلمون وتنظيمات الإسلام السياسي عموماً بأنّ أفكارهم هي أفكار الإسلام ذاتها وهي أفكار منتصرة»

أما المرحلة الثالثة فهي الإيمان بهيمنة الأيديولوجيا الإسلامية على ما سواها؛ إذ يؤمن الإخوان المسلمون، ومعهم تنظيمات الإسلام السياسي عموماً، بأنّ أفكارهم هي أفكار الإسلام ذاتها، وهي أفكار منتصرة، فيقول حسن البنا في رسالة «إلى أي شيء ندعو الناس»: «فالعالمية والقومية والاشتراكية والرأسمالية والبلشفية والحرب وتوزيع الثروة، والصلة بين المنتج والمستهلك، وما يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى هذه البحوث التي تشغل بال ساسة الأمم، وفلاسفة الاجتماع، كل هذا نعتقد أنّ الإسلام خاض في لبّه، ووضع للعالم النظم التي تكفل له الانتفاع بما فيه من محاسن»، في هذه المرحلة تصبح أفكار «أيديولوجيا الإخوان» أفكاراً نبيلة تستحق التضحية من أجلها، وهذا ما نجده من الإخوان المسلمين وكثير من تنظيمات الاسلام السياسي؛ لديهم إيمان مطلق بقدسية ونبالة أفكارهم، وأنّ عليهم أن يضحوا من أجلها بالوقت والمال والجهد، والنفس إن أمكن.

هكذا صنع الإخوان أيديولوجيتهم الموهومة، التي قدمت حلولاً خيالية، لا تستمد جذورها من الواقع، وحملت وعداً للجماهير غير قابل للتحقيق، طالب الإسلامويون عموم المسلمين أن يناصروهم في معركتهم الفكرية والسياسية، لأنهم إن ناصروهم وانتصرت الأيديولوجيا، فستقدم الجماعة لهم أفضل مجتمع وأحسن تعليم، وأيسر سبل للعيش، وأنظمة جديدة إسلامية الهوية، بديلاً لكل الأنظمة التي ذاقوا معها شظف العيش، وأنهم سوف يحققون العدل والحرية للجميع.

عندما وصل الإخوان في بعض الأقطار المسلمة إلى سدة الحكم، سواء في فلسطين أو السودان أو تونس، أو في مصر بلد المنشأ، لم يجد المواطنون فارقاً يذكر عمن سبقوهم إن على صعيد الممارسات أو الأدوات، هنا أيقن المواطنون

«عندما وصل الإخوان إلى سدة الحكم لم يجد المواطنون فارقاً عمن سبقوهم على صعيد الممارسات أو الأدوات»

أنّ الصبغة الإسلامية التي تمسح بها الإخوان لم تكن إلا طلاء، ولم تصل إلى أن تكون سلوكاً متجذراً في أفراد الإخوان، وأنّ الحلول التي يقدمونها بوصفها «حلولاً إسلامية»، هي حلول موجودة عند الجميع، سواء ليبراليين أو إسلاميين أو حتى بقايا اليسار.

سقطت أيدولوجيا الاخوان؛ لأنّهم لم يمتلكوا منتجاً فكرياً حقيقياً، وكل ما أنتجوه فكر مزيف ملفق من كتب التراث، فكلما وجدوا واقعة تبرر لهم أفعالهم لجؤوا إليها، لذلك رفضت الجماهير الأيديولوجيا الإخوانية، ولم يرفضوا الإسلام؛ رفضوا المتاجرين بالدين ولم يرفضوا الدين نفسه.

ساهم سقوط وهم الأيديولوجيا الإخوانية، في سقوط المشروع الأخلاقي والتربوي الإخواني المزعوم، المتمثل في إيجاد الفرد المسلم أولاً، والأسرة المسلمة ثانياً، وصولاً إلى المجتمع المسلم في النهاية، وهذا السقوط التربوي سيكون له مقال آخر.

التجسس عند حسن البنا: خطيئة الآخرين فقط!

اتفق المسلمون، علماؤهم وعوامّهم، أنّ التجسس وتحسس الأخبار ومحاولة الوصول للأسرار وكشف عورات الناس وهتك المستور من الرذائل والآثام، ويحرص الدعاة أن يحذروا المسلمين من الوقوع في تلك الخطايا، وقبل كل شيء يحذرون أنفسهم وأهليهم من الوقوع فيما نهون الناس عنه، وأن يتعففوا عن السقوط في البذاءات التي يستخدمها غيرهم.

حسن البنا كان يرى نفسه داعية إسلامياً، بل داعية كبيراً وزعيماً يقوم بدور الوعظ والإرشاد للناس جميعاً، ويدعوهم للانضمام الى جماعته؛ لأنّها في عرفه هي الوحيدة التي ستسير بهم إلى طريق الجنة، وفي خطبه ومقالاته لطالما حث الناس على حسن الخلق، ونهى عن الكذب والتجسس والغيبة والسخرية من الآخرين، وكان من المفترض أن يكون نموذجاً لما يأمر الناس به.

بالبحث في سيرة الجماعة ومؤسسها نكتشف أنّ البنا كثيراً ما سقط في إثم التجسس، مع قدرة عجيبة على تبرير تلك الفعلة المحرمة شرعاً والمنبوذة مجتمعياً، حسن البنا الداعية تجسس بالفعل على أتباعه، وتجسس على الأحزاب المختلفة، وتجسس على بعض رموز الدولة مثل الملك، وتجسس حتى على حلفائه ومناصريه من أصحاب الفكرة الإسلامية.

ففي الإسماعيلية وبعدما اشتدت الخلافات بينه وبين الكثير من أهلها وبعض من أعضاء جماعته، قرر الانتقال إلى القاهرة، وظهرت معضلة من يخلفه في قيادة الجماعة والجمعية في الإسماعيلية، وكانت الآراء كلها تسير نحو شيخ أزهري ذي علم ودين شهد له الجميع بحسن أدبه وعلمه، لكن حسن البنا لم يكن يرغب في شيخ يزاحمه الثقافة الدينية بعلم أعلم منه، أو يتمتع بوجاهة اجتماعية أرقى

«البنا كثيراً ما سقط في إثم التجسس مع قدرة عجيبة على تبرير تلك الفعلة المحرمة شرعاً والمنبوذة مجتمعياً»

منه، بل يريد رجلاً يسمع له ويطيع، فاختار رجلاً طيب وخلوقاً لكنه كان ضعيف العلم.

واشتدت معارضة بعض أعضاء الإخوان لحسن البنا، وكان من رأي هؤلاء الأعضاء أنّ الأمر شورى، وأنّهم وحدهم من يختار من يرأسهم، وهم قد اختاروا الأعلم، شعر حسن البنا بالخطر لو أنهم فرضوا عليه الشيخ العالم، فقرر أن يتلصص عليهم ليعلم ماذا يقولون وماذا يدبرون، ولنقرأ ما كتبه حسن البنا بنفسه عن هذه اللحظة في مذكرات «الدعوة والداعية»، يقول: «قد أرِقت ليلة فخرجت لصلاة الفجر بالمسجد العباسي قبل الوقت بنحو ساعة أو أكثر، ومررت في الطريق على بيت أحدهم فإذا هو مضاء ونوافذه مفتحة وهناك أصوات في نقاش استرعت انتباهي، فإذا الشيخ جالس وهم حوله، وهو يرسم لهم طرائق الكيد والخصام».

قد نصدق أنه قد أَرِق وأن الوقت كان قبيل الفجر بساعة وأن الطريق يمر ببيت أحدهم، لكن من الصعب أن نصدق أنّ النوافذ كانت مفتوحة وأنه تمكن من سماع الحوار كاملاً بل ومشاهدة الجالسين بالترتيب الذي وصفه دون أن يراه أحد! إلا إذا كان يتخفى ويتجسس عليهم عمداً، العجيب أنّ أتباع حسن البنا يرددون هذه الحكاية بكل فخر دون أن يهتز لهم جفن بأنّ مرشدهم كان يتجسس على أتباعه ولا يخجل من أن يعترف بذلك.

قد تكون تلك الحكاية ملتبسة على البعض، فيبرر التجسس أنه لم يكن مقصوداً في ذاته، لكن إذا ضممنا تلك الواقعة الى ما أورده محمود عساف رئيس قسم المعلومات الذي انشأه حسن البنا (أو المخابرات الإخوانية كما يحلو للبعض وصفها) في كتابه «مع الإمام الشهيد حسن البنا» صفحة ١٨، نرى أنّ

«البنا استخدم سياسة توظيف الجواسيس في نقل ما يريد إلى القلم السياسي مقابل مال يدفعه الإخوان لهم»

البنا كان يستخدم جواسيس في أكثر الأماكن حساسية، وأنّه اكتشف ذلك عندما رفع أحد البحارة العاملين على يخت الملك فاروق تقريراً لحسن البنا كتب فيه تفاصيل رحلة الملك، بداية أسماء الموجودين على ظهر اليخت، وأين ذهبوا ومع من تقابلوا، كما تضمن التقرير وصفاً لاجواء المرح التي وصفها عساف بأنها مَساخر، مما يعني أن التجسس لم يكن فعلاً عارضاً بل سلوك متجذر في حسن البنا.

لم يقف نشاط التجسس عند حسن البنا على أبتاعه أو الملك، بل وصل إلى الحزب الشيوعي؛ يقول عساف أيضاً: «عندما اشتدت الشيوعية في مصر، دَفَعنا هذا إلى زرع أحد الإخوان المتعاطفين (وهو الآن أستاذ جامعي) وكان يتقاضى خمسة جنيهات شهرياً مقابل إمداد الإخوان بأخبار الشيوعيين وذلك عام ١٩٤٦، هذه الأخبار منها ما كان يعرض في مجلة الكشكول الإخوانية، ومنها ما كان يعرض على حسن البنا ليأخذ بها علماً، ومنها ما كانوا يخطرون به مدير الأمن العام وكيل الداخلية المرحوم أحمد مرتضى المراغي».

الأمر لا يحتاج إلى تفسير أكثر من هذا عن الجهة التي كانوا يتجسسون لصالحها، ولا يزعم أحد أنّ هذا كان عملاً وطنياً، ولا يدّعي أحد أنّ الإبلاغ عن الشيوعيين كان من أجل معتقداتهم، بل كان من أجل معارضتهم للحكومة وقتها.

ومن المتواتر عند الإخوان حكايات الحاج فرج النجار الذي زرعه حسن البنا في الحزب الشيوعي إلى أن وصل الى منصب مهم في فرع الحزب بالغربية، وأنّه كان ينقل لهم أخبار الحزب، وقراراته ومواقفه السياسية من الحكومة ومواعيد المظاهرات، كما يتحدث الإخوان عن حكايات فرج النجار كأنها أساطير وكيف تملص من دعوة رفقاء الحزب له لشرب الخمر ومخالطة النساء، وكيف أبطل

«لم يقف نشاط التجسس عند حسن البنا على أبتاعه أو الملك بل وصل إلى الحزب الشيوعي»

مؤامرتهم في إفشال مؤتمر الإخوان في الغربية، وكيف غرّر بشباب الحزب الشيوعي لينالوا «علقة» ساخنة على أيدي شباب الإخوان.

قد يكون من المتوقع أن يبرر الإخوان لأنفسهم اقتراف مرشدهم خطيئة التجسس المنهي عنها في كتاب الله، تحت الزعم أنّه كان يتجسس على الشيوعيين «الكَفَرة»، وعلى الملك الفاسد، لكن ما حجتهم وهم يتجسسون على رمز إسلامي ومناضل كان يناصرهم هو أحمد حسين، فما قولهم وهم يتجسسون ويزرعون رجلهم في جمعية كانت تشاركهم الفكر الإسلامي هي جمعية مصر الفتاة!

في نفس كتاب محمود عساف يذكر ذلك تفصيلياً، فيقول «كان أحمد حسين رئيس جمعية مصر الفتاة رجلاً وطنياً ينفجر حماساً وحبّاً لمصر، ولهذا كان تأثيره بالغاً على أتباعه»، العجيب أنّ هذه الوطنية والالتزام الديني لم تشفع عند حسن البنا، فطلب من أمين جهاز المخابرات الإخواني أن يتجسس عليه، يبرر عساف هذا بقوله: «نُفاجأ في يوم من الأيام بمقال في مجلة مصر الفتاة يقول فيها محرره، حانت خاتمة الدجل والشعوذة، الإخوان يتعاونون مع كل الأحزاب بلا مبدأ ويتحالفون مع الكل حتى الإنجليز الذين يسخرونهم لمحاربة الشيوعية والوطنية، ويفتحون لهم الشُعب في السودان وفلسطين وغيرها».

ثم يبرر عساف تجسسهم على أحمد حسين بأنّها ضرورة؛ فالإخوان يجب أن يتعرفوا على ما يدور في أدمغة قادة مصر الفتاة، فقرروا زرع أحدهم في صفوفه العام ١٩٤٥ فيقول «فكلفنا أحد الإخوان بالانخراط في الجمعية وهو المرحوم أسعد السيد أحمد الذي انضم إليهم وبرز فيهم سريعاً لنشاطه الملحوظ»، وعندما اكتُشف أمره في العام ١٩٤٨ علم أعضاء مصر الفتاة واعتدوا عليه بالضرب.

من الواضح أنّ علاقة حسن البنا بالسلطة وبرجال الأمن كانت قوية لدرجة أنّ عساف يقول إنّ حسن البنا كان يكتشف الجواسيس الذين يرسلهم الملك أو الذين يعملون في القلم السياسي إلى دار الإخوان فقد كانت له مصادره الخاصة! وهذا اعتراف آخر له ما بعده فمصادر البنا لم يكن يعرفها رجل المعلومات الأول في الجماعة.

المثير أنّ حسن البنا استخدم سياسة توظيف الجواسيس، في نقل ما يريد إلى القلم السياسي مقابل مال يدفعه الإخوان لهم، وهذه الأخبار كان يكتبها ويقدمها محمود عساف مرتين في الأسبوع للجواسيس المكتشفين تتضمن أخباراً عامة ودون الدخول في التفاصيل التي كان يبحث عنها القلم السياسي وقتها.

إنّ تاريخ مؤسس الإخوان المسلمين يجب أن يُدرس بدقة لفهم العوامل المجتمعية والسياسية التي جعلته يتبنى خيارات متناقضة مع بعضها البعض ومتضادة مع أصل دعوته، مما شكل ارتباكاً كبيراً في رصد حالة هذه الحركة.

ما قصة اللعنة التي لاحقت المرشحين لمرشد الإخوان بعد حسن البنا؟

إنّ البحث في تاريخ جماعة ما ليس ترفاً، فدراسة البدايات تكشف الطريق والمسار، ودراسة لحظات التحول وما اتُّخذ من قرار في ظل الأزمات يكشف من يدير الجماعة في الخفاء، لذا فمن المهم دراسة تلك الفترات بكل دقة، وعلى وجه الخصوص إذا كانت هذه الجماعة متصلة بالحراك اليومي، ولها تأثير واضح على الحياة الفكرية والثقافية للفرد والمجتمع ومؤسسات الدولة.

وجماعة الإخوان المسلمين، اتفقنا أو اختلفنا بشأنها، هي من تلك الجماعات التي تتصل بالناس، وتؤثر على اختياراتهم وقراراتهم، مما يدفعنا لدراستها وإلقاء الضوء على طريقة اتخاذ القرارات المصيرية فيها.

أحد أهم منعطفات جماعة الإخوان المسلمين؛ تلك التي تلت مقتل حسن البنا، مرشد ومؤسس الجماعة، فقد سبقت مقتله أحداث جسيمة شاركت الجماعة في صناعتها وانتهت نهاية مأساوية، فعندما شاركت الجماعة في الثورة اليمنية على الإمام يحي حميد الدين وقتله، فشلت الثورة وتعرض قادتها للإعدام، وحتى عندما شاركوا في حرب ١٩٤٨ بأعداد رمزية؛ انتهت الحرب بهزيمة العرب وإعلان قيام دولة «إسرائيل»، وعند مشاركتهم القوى الوطنية في المظاهرات التي تطالب بالحريات والاستقلال، تحولت إلى اضطرابات داخلية انتهت بإعلان حل الجماعة وتنظيماتها، ثم تطورت الأحداث إلى اغتيال رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي، ثم في لحظة أكثر مأساوية بالنسبة للإخوان المسلمين تم مقتل المرشد العام والمؤسس الأول للجماعة، حسن البنا.

«سبق مقتل البنا أحداث جسيمة شاركت الجماعة في صناعتها وانتهت نهاية مأساوية»

في كافة المؤسسات التنظيمية، السرية والعلنية، يحظى الرجل الثاني بحضور قوي ومشاركة فعالة في إدارة التنظيم، تسمح له بالقيادة بشكل سلس في غياب القائد الأول، بيد أنّ الأمر مختلف في جماعة الإخوان المسلمين، فكلما ظهر الرجل الثاني القادر على إدارة الجماعة، تخلص منه التنظيم بشكل أو آخر، فقد تخلّص حسن البنا نفسه من نائبه ووكيله وشريكه في تأسيس الجماعة أحمد السكري، الذي لو كان موجوداً بعد مقتل حسن البنا لأدار الجماعة بكفاءة أكثر في ظل غياب شبه متعمد للقائد البديل وتكريس لمركزية القائد المرشد في بنائية الجماعة.

حتى عندما أجبرت الأحداث الإخوان أن يختاروا مرشداً جديداً بعد مقتل البنا، وعندما حصروا الشخصيات المؤهلة لملء الفراغ ظهرت أسماء ثلاثة أشخاص يصلح كلّ منهم أن يكون مرشداً، لكن لسبب غامض لم يختاروا أيّاً منهم! بل سرعان ما قاموا بفصلهم الواحد تلو الآخر، وكأنّ المطلوب أن تظل الجماعة بدون رجل ثانٍ قوي يرث القيادة!

فالمرشح الأول الشيخ أحمد حسن الباقوري مرشح الشيوخ الأصوليين في الجماعة (الأزاهرة) والشيخ المستنير ورجل الجماعة والشاعر المعروف والواعظ المهندم، والشخص الوحيد الذي ائتمنه حسن البنا على قيادة الجماعة من بعده، فأدارها في أحلك فتراتها وبشهادة الإخوان، عندما عرض عليه منير دلة منصب المرشد العام رفض وقال إنّه لا يسعى للمنصب، وبدلاً من التشبث به، أو توظيفه توظيفاً يليق بقدراته، قامت الجماعة بفصله؛ لأنّه قبل منصباً وزارياً في حكومة الضباط الأحرار بعد ثورة ٢٣ يوليو.

بدا الفصل وكأنّه محاولة للتخلص من شخص قادر على إدارة الجماعة، ومن الممكن منافسة الهضيبي مستقبلاً، وإلا فإنّ الاشتراك في حكومة عبدالناصر كان يجب ألا يعتبرها الإخوان جريمة تُخلّ بعضوية الباقوري في مكتب الإرشاد ولا في الجماعة، فالإخوان كانوا موافقين على الاشتراك في الحكومة، والخلاف كان على

«لا أحد من مؤرخي الاخوان يجيب لماذا استثنيت الهيئة التأسيسية من قرار اختيار المرشد بعد البنا؟»

الأسماء وطبيعة الحقائب الوزارية لا أكثر، فما الداعي لكل تلك القسوة في فصل الباقوري!

أما المرشح الثاني فهو صالح عشماوي الذي ولد بالقاهرة في ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠، وحفظ القرآن الكريم كاملاً وهو في سنٍّ مبكرة، وتدرَّج في دراسته بتفوق حتى تخرج في كلية التجارة العليا العام ١٩٣٢، والتحق بجماعة الإخوان المسلمين العام ١٩٣٧، واختير عضواً بمكتب الإرشاد فى وقت مبكر، ثم اختير وكيلاً للجماعة العام ١٩٤٧، وهو مرشح التنظيم السري والرجل القادر على إدارة الجماعة بتشكيلاتها السياسية والسرية والعسكرية مع المحافظة على الهوية الإسلامية الأصولية، التي صبغت الجماعة نفسها بها، وصاحب امتياز صحف الإخوان.

عندما عرض عليه منير دلة منصب المرشد العام رفض قائلاً إنّ هذه مسألة تخص أعضاء الهيئة التأسيسية، وبصفته وكيلاً للجماعة لا يمكن أن يفرط في حق الهيئة التأسيسية في انتخاب المرشد الجديد وفق ما تنص عليه اللائحة.

لا أحد من مؤرخي الإخوان يجيب عن سؤال: لماذا لم يرضخ منير دلة لرأي صالح عشماوي؟ ولم يعد للهيئة التأسيسية لتحدد هي من يتولى منصب المرشد التالي لحسن البنا؟ خصوصاً أنّ اللائحة تنظم ذلك، ورغم هذا حرص عشماوي على عدم شق الصف وقبل بالهضيبي مرشداً، واستمر يحاول إصلاح الجماعة من الداخل، لكن هيهات! فترشحه السابق يطارده، وبعد أسابيع من فصل الباقوري تم فصله من الجماعة!

هذه القامة التنظيمية من وثق فيه حسن البنا مبكراً وأرسله نائباً عنه إلى الهند والباكستان التي كان زعيمها محمد علي جناح العام ١٩٤٧؛ تم فصله بطريقة مهينة؛ فبعد مجموعة من القرارات المتخبطة من مكتب الإرشاد بخصوص فصل

قيادات التنظيم الخاص، وهم: عبد الرحمن السندي وأحمد عادل كمال وأحمد ذكي ومحمود الصباغ، التهبت العواطف وثارت غضبة البعض فتجمهروا في بيت المرشد ليثنوه عن هذه القرارات في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣، ولما رفض المرشد تجمهرهم، انتقلوا بغضبهم الى المركز العام للإخوان، ولم يكن هناك صوت عاقل يهدئهم غير عضو مكتب الإرشاد صالح عشماوي، الذي قام -حسب رواية أحمد كمال في كتابه النقاط على الحروف- بالاستماع للمتجمهرين وتهدئتهم، مما اعتبره أنصار المرشد الهضيبي دليلاً على تآمره، وأنّه يدبر انقلاباً لينصّب نفسه مرشداً، ثم صدر قرار بفصله وآخرين من الجماعة!

أما المرشح الثالث فهو عبد الرحمن الساعاتي شقيق حسن البنا، ومرشح البسطاء من الإخوان المسلمين؛ من غير العسكريين أو الأصوليين، باعتباره من المؤسسين الأوائل للإخوان، فقد ضم جمعيته (الحضارة الإسلامية) إلى الإخوان المسلمين وقت أن كان البنا في الإسماعيلية، وكانت جمعيته أكثر نشاطاً في جذب شباب الأزهر، منهم الشيخ محمد فرغلي والشيخ أحمد حسن الباقوري والشيخ محمد أحمد شريت وأخواه حامد شريت وأحمد شريت، والشيخ عبداللطيف الشعشاعي، والأستاذ محمد النبراوي، والشيخ جمال العقاد السوري الحلبي، لكن جمعية الحضارة كانت الأقل تمويلاً، وهو من من نفس بيت حسن البنا وشبيهه وله نفس قدرته الخطابية، فهو شاعر الجماعة المعروف وأديبها المميز، كما أنّه يعلم كافة الأسرار التي تكتنف الجماعة تأسيساً وتمويلاً.

وعندما عرض منير دلة منصب المرشد العام عليه قبله مستعيناً بالله على مهامه، وحتى الآن لا أحد يعلم لماذا لم يحصل عليه؟ وإذا كانت الجماعة تعمل بمبدأ أننا لا نعطيها لمن طلبها فالرجل لم يطلبها بل عُرضت عليه، ورغم هذا بايع الهضيبي مرشداً، وظل عضواً بمكتب الإرشاد.

وفي آذار (مارس) ١٩٥٤ عندما ألقت السلطات القبض على الهضيبي ومعاونيه عبد القادر عودة وعمر التلمساني وصالح أبو رقيق ولم يبق من مكتب الإرشاد إلا منير دلة ومحمد حمد أبو النصر وعبد الرحمن الساعاتي، قرروا اختيار شخص يدير الجماعة في ظل غياب المرشد.

وللمرة الثانية تظهر شخصية عبدالرحمن الساعاتي كمنقذ للجماعة، ويحكي محمد حامد أبو النصر عن تلك المرحلة في كتابه «حقيقة الخلاف بين الإخوان وجمال عبد الناصر»: «فقال الدكتور كمال خليفة حقيقة إنّ قيادة الجماعة مهمة وتحتاج إلى نشاط ومتابعة وعمل مستمر، وأنا كما تعلم مشغول ووقتي لا يسمح، ويستحسن أن يكون الأستاذ عبد الرحمن الساعاتي هو الرجل المسؤول في هذه الظروف، فقال الأستاذ عبد الرحمن: أنا مستعد يا فندم لأن أتحمل كل المسؤولية على شرط أن نضع ميثاقاً لهذا العمل، وقام إلى مكتبه وكتب شهادة أو إقراراً يحتوي على أنّه هو المسؤول الآن عن الإخوان المسلمين؛ وطلب مني (الكلام على لسان محمد حامد أبو النصر) ومن الدكتور كمال خليفة التوقيع على هذه الوثيقة، فما كان من الدكتور كمال إلا أن قال: لا بأس أعطني قلمك ووقع على هذه الورقة وطلب إليّ التوقيع عليها فرفضت وقلت: لا أوقع، وهنا غضب الأستاذ عبد الرحمن وقال: أنت لا تثق».

ثم حاول الساعاتي حل سوء التفاهم الذي تسبّب فيه قادة الإخوان مع الضباط الأحرار، فأفسد عليه رجال الهضيبي تلك المحاولات واشتدت الأزمة، ثم وقعت محاولة اغتيال عبد الناصر في المنشية، وما تبعها من إجراءات، هنا أدرك عبدالرحمن الساعاتي أن لا مكان له ولا مكانة في جماعة الإخوان فلم يعد إليهم ثانية.

ثلاثة مرشحين تم فصلهم من الإخوان بعد تولي حسن الهضيبي منصب المرشد العام، فمن المستفيد من طردهم من الجماعة، وكل واحد منهم كان يملك المهارة الكافية لإدارة الجماعة بشكل صحيح للقيام بدورها الدعوي، ثلاثة يملك كل واحد منهم رصيداً كبيراً في صفوف الإخوان، فماذا فعلت الجماعة بهم؟ هل ادخرتهم لسد عجز فراغ القيادة، هل تمكنت من توظيفهم في مسارات الجماعة؟ طبعاً لا، بل طردتهم وطاردتهم وكأنّ كل جريمتهم أنّهم كانوا مرشحين لمنصب المرشد العام يوماً ما!

هل استعلاء الإخوان على الناس فكرة طارئة؟

كثيراً ما يتساءل الباحثون عن حقيقة الاستعلاء عند جماعة الإخوان، وهل هي مكوّن أصيل في منهجهم التربوي أم مجرّد فكرة طارئة لحقت بهم؟ وكيف تتمّ تربية الفرد الإخواني عليها؟ ولماذا لا يجد الباحثون في أدبيات الإخوان ما يدلّ على ذلك؟

منبع الإشكالية المنهجية يعود في الأساس إلى التصوّر الخيالي عن تنظيم الإخوان السرّي، فيحسب بعض الباحثين أنّ كل تعليمات قادة الجماعة مدونة ومكتوبة وبشكل واضح، وتصلح أن تكون مصدراً يُعتمد عليه في دراستهم للجماعة، وما يطرأ على أفكارهم من تغير، سواء بالتطور أو بالضمور، وللأسف النصوص التي يتوقعها الباحثون غير موجودة، ولن يجدوها بالوضوح المتوقع، ولكنها موجودة على ألسنة المربين المدسوسين بين جنبات زوايا المساجد، أو المنطلقين في دروس التنظيم السرّية، وهؤلاء يورثون أفكار الإخوان شفاهةً لا كتابةً، يستولون على عقول أتباعهم، فيغيرون من منظورهم للدين وللدنيا وللدولة، وللحقّ وللباطل، وللناس، خواصهم وعوامهم، وينتجون بتربيتهم، في الغالب، إرهابياً؛ ولو بشكل مؤجّل.

ولعلّ فكرة الاستعلاء هي أشهر مكوّن فكري عند الإخوان تحوّل إلى سلوك، صحيح ليس عليه دلائل كثيرة، لكننا نجده متجسّداً في سلوكيات الإخوان. إنّ الاستعلاء على عوام الناس مبدأ أقرّه حسن البنا وأرسى دعائمه سيد قطب، وتولّى مربّو الإخوان تقديمه في محاضراتهم التربوية، مستغلين التراث وحكاياته، وتقديمه بصورة مخلّة، ويستخرجون منه الدلالات على صدق استعلائهم على عوام الناس، حتى بات سلوكاً وسمتاً إخوانياً بامتياز، ولو أنكره الإخوان.

« لعلّ فكرة الاستعلاء هي أشهر مكوّن فكري عند الإخوان تحوّل إلى سلوك، وأقر هذا المبدأ حسن البنا وأرسى دعائمه سيد قطب»

بدأ حسن البنا غرس الاستعلاء على العوام، عندما أوهم أتباعه أنهم الأكثر فهماً للإسلام، وأنّ غيرهم متردد ونفعي، وأنهم وحدهم ورثة رسول الله، وأنّ العالم أجمع سيحاربهم، وعليهم ألّا يغتروا بأهل التدين وبصلاحهم، ولا بأصحاب الهيئات ورؤساء الحكومات، ولا برجال الأعمال ورؤساء الأحزاب، ولا بعلماء الدين من غير الإخوان، فالكلّ سيعادي الإخوان، لا لشيء إلّا لأنهم إخوان! فهم يحملون راية الرسول، عليه السلام، وصحابته الكرام، وسينتصرون كما انتصر، صلى الله عليه وسلم، وهم وحدهم من حباهم الله تعالى بفهم صحيح للدين!

هذه المعاني التي تتكرّر في رسائل حسن البنا وفي كلماته الشفوية كرسالة تربوية سرّية تسللت إلى وجدان أتباعه، إضافة إلى علميات تربوية معقدة يمارسها الإخوان على أتباعهم، فيعتقد عضو الجماعة أنه طالما في ركاب الجماعة، فهو أعلى من عوام الناس.

في نهاية أربعينيات القرن الماضي، ومع مغادرة حسن البنا المشهد، ظهر سيد قطب كأحد مفكّري الجماعة، فأوضح فكرة حسن البنا الخفية بمصطلح «الاستعلاء بالإيمان»؛ وليس المقصود بالإيمان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، فهذا الإيمان موجود عند جميع المسلمين، خواصهم وعوامهم، بل المقصود بالإيمان «الانتماء التنظيمي»، فالإخواني لا يستعلي على العوام بإيمان أو بعبادة، لأنّ من المتوقع وجود من هم أكثر علماً وأكثر تقوى وأكثر عبادة منه، بل يستعلي عليهم بانتمائه للجماعة، فغالب المجتمع مؤمنون؛ لكن ليسوا أعضاء بالجماعة.

ابتداع حسن البنا وسيد قطب لفكرة الاستعلاء بالإيمان سبّب الكثير من الانحرافات عند الجماعات الإسلاموية، فهي تبدأ باحتقار العوام، ثمّ انتهاكهم،

«بدأ البنا غرس الاستعلاء على العوام عندما أوهم أتباعه أنهم الأكثر فهماً للإسلام»

ثمّ إهدار دمهم، وبالتوازي يبدأ الاستعلاء بالإيمان عند عضو الجماعة، ثمّ الشعور بالتفرّد، ثمّ إنكار الإيمان عن غيره من المسلمين. لا أعلم أنّ عالماً فقيهاً استوقفه هذا المصطلح الكارثي وفنّده أو أشار إلى بدعيته، فهذا المصطلح لم يستخدمه أحد من الصحابة ولا من علماء المسلمين من قبل، فالإيمان لا يدعو للاستعلاء على الآخر أبداً، بل يدعو للتواضع أمام الناس جميعاً، والانكسار لربّ الناس، والتوجيه الرباني في القرآن الكريم يقول للمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ * كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا * إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (الآية ٩٤ سورة النساء)؛ أي لا استعلاء على أحد بالإيمان، فقد كنتم مثلهم حتى أنعم الله عليكم بالهداية ونور الحق.

إنّ التربية على الاستعلاء بالإيمان تحتاج مستعلياً ومستعلى عليه، وسبباً للاستعلاء، وقد اجتهد الإخوان في جعل أبنائهم المستعلين بالإيمان، ودبجوا الخطب والمقالات والرسائل التربوية ليوفروا سبباً لاستعلائهم على الناس، فتلبّسهم تفوق زائف وعصمة زائفة، دعاهم للتشبث أكثر بتنظيماتهم، فاعتبروا أنفسهم الفئة المؤمنة دون غيرهم، أو الفئة التي تفهم الدين الصحيح دون غيرهم، أو الفئة التي تعمل للدين دون غيرهم، ورفضوا أيّ نقد لجماعتهم أو لقاداتهم، وكلّ من انتقدهم اعتبروه معادياً للإسلام، أمّا المستعلى عليهم، فهم عوام الناس، فتعالوا وتكبّروا على كلّ مخالفيهم دون شعور بالذنب، لأنهم يظنون أنهم يحسنون عملاً، وأنّ مراد الله لهم أن يستعلوا بإيمانهم.

وفي تطبيق عملي للتربية على الاستعلاء، مستخدماً قصصاً من التراث بشكل ملتوٍ وفج، هناك كلمة تربوية (مصورة) ألقاها أحد التربويين المعتمدين عند الإخوان، وهو المهندس «م.ع» عضو مجلس شورى الإخوان، في مسجد

«هذا النهج سبّب الكثير من الانحرافات عند الجماعات الإسلاموية بدءاً بازدراء العوام وصولاً إلى إهدار دمائهم»

من المساجد التي سيطروا عليها عقب ثورة ٢٥ يناير العام ٢٠١١. وتعود أهمية الكلمة الشفهية إلى أنها تكشف مدى قدرتهم على تزييف الحكايات، وأنّ أثر الكلمة المسموعة أكبر من الكلمة المكتوبة، وأنّ التلقي الإخواني شفهي، وليس كتابياً، وكثير من التوجيهات التربوية تُعدّ كارثية وتصبّ في التكفير وتدعو للعنف بشكل واضح، وهذه المشافهة سرّية بين الإخوان فقط، فلم يكن يتسنّى التعرّف عليها وتحليلها، لكن بعد ثورة الاتصالات، وتملك الكثير من الإخوان هواتف ذكية يمكنها التصوير والتسجيل الصوتي، ومع حالة الأمان التي شعروا بها بعد ٢٥ يناير، أخرجوا ما في قلوبهم تجاه الناس.

يقول المربي الإخواني في كلمته: إيّاك أن تكون من العوام (فالفرد الإخواني مختلف)، فالعوام عندما انتشرت شائعة أنّ جريج الراهب قد زنى بالبغي، قاموا بهدم صومعته، وعندما أظهر الله براءته سكت العوام عن إيقاع العقوبة ذاتها على الراعي الفاعل الحقيقي، ولم يوجّهوا اللوم للبغي التي ادّعت على جريج بالتهمة. وهكذا نرى كيف استنتج المربي الإخواني، عضو مجلس شورى الجماعة، أنّ هذا سلوك العوام بالمطلق، وأنهم لا يفكّرون بعقولهم، وكلّ الذي يملكونه ألسنة تنشر الشائعات.

نلاحظ هنا كيف تم توظيف هذه الرواية لغير غايتها، وهي تقديم العبرة المباشرة من أنّ الرجل الصالح ينجيه الله من الادّعاءات الكاذبة، فالرواية في صحيح مسلم وفي صحيح البخاري وفي الأدب المفرد، تدور حول جريج الراهب من بني إسرائيل، المتعبد الزاهد الذي نادته أمه فلم يجبها ولم يبرّها حرصاً على صلاته، فدعت عليه ألّا يموت حتى يرى وجه المومسات، فابتلاه الله بادعاء تلك البغي من بني إسرائيل، بأنها حملت منه، فأمر الملك وقتها بهدم صومعته، وجرّوه بحبل مربوط في عنقه، حتى أتى الملك والبغي وابنها، فصلى ثمّ اتجه إلى

«عادة الإخوان التي لن يتخلصوا منها أبداً أن يوظفوا التراث بما يناسب أهواءهم ولو قسراً»

الرضيع وقال له: من أبوك؟ فقال: أبي الراعي، فندم الملك، وقال له: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، قال: من فضة، قال: لا، بل ردّوها كما كانت من طين. لم يكن هدف الرواية تتبع ماذا فعل الملك مع الراعي، ولا مع البغي، بل تهدف الرواية إلى إثبات أنّ تلبية نداء الأم أهمّ عند الله من الصلاة، وأنّ التقوى تنفع الرجل الصالح فتنجيه من الاتهامات الكاذبة.

لكنها عادة الإخوان التي لن يتخلصوا منها أبداً، أن يوظفوا التراث بما يناسب أهواءهم، يستخرجون من الحكايات ما يناسب واقعهم ولو قسراً، حتى لو اضطروا أن يطمسوا الحقائق، ويكذبوا في سرد الوقائع؛ فقط يجب الوصول إلى غايتهم، وغايتهم دائماً التأكيد على أفضلية الفرد الإخواني على غيره، لا لشيء إلّا بانتمائه للجماعة، وأنه أكبر من مجرّد أن يكون مسلماً عادياً، أو مسلماً من عوام الناس.

الإخوان وبناء العقلية الخرافية

يفتخر الإخوان المسلمون بأنّهم أكثر الفصائل الإسلامية احتراماً للعقل والمنطق، وأنّهم ضدّ «خرافات الصوفية»، وقد صدّق البعض ذلك، لكنّ ما كشف عدم صحة هذا الادعاء؛ ممارساتهم في المواقف العملية، وعلى وجه الخصوص أثناء الأزمات، فقد أظهروا العقلية الحقيقية المختبئة بين تلافيف الشخصية الإخوانية، ومدى توغّل الفكر الأسطوري في بنيتهم العقلية، وإن زعموا خلاف ذلك.

أول هذه المظاهر بعد ثورة ٣٠ يوليو التي أنهت حكمهم؛ انتشار مقولة «من ولّاه سيتولّاه على السنّة» بين عموم الإخوان، وهي إشارة إلى أنّهم تولّوا حكم مصر بأمر الله تعالى المباشر، وما دام الله تعالى هو من جاء بهم إلى الحكم، فمن المؤكد أنّ الله تعالى هو من سيتولى الدفاع عنهم!

وبعد النظر في الحكايات التي تربّى عليها الإخوان؛ اكتشفت أنّ أحدَ مكوّنات التربية الإخوانية هي تجهيزهم لقبول الفكر الخرافي والأسطوري، مع ملاحظة أنّ هناك فارقاً واضحاً بين العقل الفردي لشخص ما من الإخوان والعقل الجمعي لجماعة الإخوان، ثمّ ازددت يقيناً أنّ العقل الجمعي للإخوان هو عقل خرافي في المقام الأول.

رغم كلّ ما يدّعيه الإخوان من أنّهم ضدّ الخرافة، وأنّ حسن البنا جاء ليحاربها، إلّا أّن كتاباتهم شاهدة عليهم، وحكاياتهم المنقولة شفهياً أكبر دليل على استخدام الإخوان لمكونات الفكر الغيبي، للسيطرة على أتباعهم، ومن ثم توجيههم إلى حيث تريد القيادة، ولقد مرّت عملية بناء العقل الجمعي للإخوان بمراحل متعددة، ومحاور متنوعة على النحو الآتي:

«يفتخر الإخوان بأنّهم أكثر الفصائل الإسلامية احتراماً للعقل ولكن ممارساتهم في المواقف العملية تنفي ذلك»

المرحلة الأولى: تقبّل الأمور الخارقة للعادة

على مرّ تاريخ الإخوان المسلمين قاموا بتربية أفرادهم على قبول الأمور الخارقة للعادة، كأنّها كرامة لبعض الأتقياء من الجماعة، فهم يحكون عن كرامات المؤسس حسن البنا الكثير، حتى تشعر أنّه كلازمة لأشخاص الإخوان، ففيما ذكره محمود عبد الحليم، في كتاب «الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ»، ص ٥٧: أنّ الأستاذ حسن البنا شغله عن الاستذكار عمله كعامل في محلّ البقالة، فلم يجد وقتاً يؤهّله للمذاكرة، فشكا إلى الله، ونام ليلة الامتحان، فرأى فيما يرى النائم أنّ رجلاً يواسيه، ويقول له: التفت فإذا في يده الكتاب الذي سيمتحن فيه في الصباح، فيفتح الرجل الكتاب على صفحة معينة، ويشير لحسن البنا أن يقرأ سطوراً بعينها، وفقرات بذاتها، وهكذا إلى نهاية الكتاب، يقول حسن البنا للمؤلف: فلمّا أصبحت وجدتني أحفظ تلك الفقرات عن ظهر قلب، ودخلت الامتحان فإذا الأسئلة كلّها هي نفس ما قرأته في الرؤيا، ويستكمل البنا: وهكذا مرّت ليالي الامتحان وأيامه على هذا النحو، وظهرت النتيجة فكنت الأول، والحمد لله! هذه الحكاية يذكرها حسن البنا بتفاصيل أخرى، لكنّ مضمونها واحد، وهو أنّ الرجل جاء إليه ومعه الكتاب وفتح صفحة كذا، وصفحة كذا، فإذا هي الإجابات في الصباح.

ومع ترديد تلك الحكاية يترسخ كثيراً لدى الإخوان أنّ قادتهم مؤيَّدون من الله تعالى، يمكنهم أن ينالوا انتصاراً وفوزاً ونجاحاً عبر المنام! إن لم تكن هذه الحكاية تخاريف، فما هي التخاريف إذاً؟

المرحلة الثانية: القيام بالمعجزات

مما يتناوله الإخوان عن حسن البنا؛ أنّه أثناء التدريبات لحرب العام ١٩٤٨ بفلسطين، بينما كان الإخوة يتدربون في بعض الجبال، تاهوا، ولم يستطيعوا

الوصول لطريق السكة الحديدية، فظلّوا في حيرة، فإذا بصوت الإمام البنا يأتيهم: «سيروا في اتجاه كذا، ثم كذا»، حتى وصلوا إلى الطريق، وركبوا القطار فنزل الأخ، قائد المجموعة، إلى بيت الإمام أولاً، فطرق الباب، ففتح له الإمام وقال: هل عرفتم الطريق؟ فانكبّ الأخ يقبّل يد الإمام.

ويؤكّد القصة د.خالد أبو شادي في ملتقى إخواني قائلاً: «القصة سمعتها بأذني من الأستاذ أحمد سيف الإسلام في بيته، وهو سمعها من الأستاذ أحمد نار، صاحب القصة، والذي سمع الصوت، وقال الأستاذ أحمد نار: إنّ الإمام البنا استأمنه ألّا يذكر هذه الموقعة لأحد، ولكنّه قال للأستاذ سيف الإسلام (ابن حسن البنا) إنّك من صلب الإمام وذريته وسأقصّها عليك إكراماً للبنا في شخص ابنه».

وهذه الحكاية مذكورة في موقع «إخوان ويكي»، ولكن ألا يحق لنا أن نتساءل أين كانت قدرة حسن البنا تجاه قضية مماثلة عندما هجم الأمن المصري على الإخوان وهم يتدربون في الجبل، وألقى القبض عليهم، فيما سميت بقضية المقطم، فلماذا لم يحذّرهم؟ ولماذا لم يعرف أنّهم قادمون!

غني عن البيان؛ أنّ هذه القصّة محاولة للتشبه بحكاية يتم تناولها في التاريخ الإسلامي، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عندما نادى في المدينة المنورة على الجيش المسلم وهو يغزو في الشام؛ أن يحتموا بالجبل.

وثمة حكاية أخرى عجيبة، يوردها موقع «إخوان ويكي» تحت عنوان «صفحات من تاريخ الإخوان في العبادة والكرامات»، ويحكيها هذه المرة عضو مكتب الإرشاد عباس السيسي؛ إذ يقول: «وروى لي الأخ مصطفى المغير؛ أنّه أثناء التحقيق معه في سجن القلعة بالقاهرة، في أحداث ١٩٦٥، طلبوا منه الدخول في دولاب (خزانة) من مصراعين، وأمروه أن يقف في جزء من الدولاب متصلباً؛ حيث لا يستند إلى أيّ جنب منه، وقد وقف لمدة من الوقت، ثم استدعوه للتحقيق، وسألوه عن أسماء بعض الإخوة الهاربين، ويقول الأخ إنّه حين كان يقف في هذا الدولاب، سمع الضابط يحقّق مع الأخ المهندس سيد شريف، وهو خريج كلية الهندسة، وزميله في الكلية وسمع كلّ ما قاله عنه شخصياً، وقد استفاد ممّا سمعه منه، وهو في هذا الدولاب العجيب، وحين خرج الضابط وسأله عن سيد شريف،

«على مرّ تاريخ الإخوان قاموا بتربية أفرادهم على قبول الأمور الخارقة للعادة بوصفها كرامات للأتقياء منهم»

أجاب بما سمع، ويقول الأخ الذي وقع معه التحقيق؛ إنّه بعد أن انتهى التحقيق بعدة أعوام تقابل مع الأخ سيد شريف في سجن مزرعة طرة، أو سجن طرة، وأخبره بما حدث معه في سجن القلعة، فقال له الأخ سيد شريف إنّه لم يذهب إلى سجن القلعة على الإطلاق، ولم يحقّق معه هناك! وأدرك الأخ أنّ الذي سمعه كان إلهاماً من الله تعالى، وهو يعيش داخل هذا الدولاب»!

المرحلة الثالثة: الاتصال بعالم الجنّ والغيب

وسأنقل هنا حكايات يعرفها الإخوان فقط! ولا دليل عليها في أدبيات الإخوان، لكنّها من واقع التلقي الشفهي في تنظيم الإخوان المسلمين.

الأستاذ علي نويتو، وهو مربٍّ من الرعيل الأول من الإخوان المسلمين، كان إذا ما التقى بالإخوان المسلمين أو الأخوات في لقاءات التنظيم، كان في منتصف اللقاء يصمت قليلاً، ويبدأ وجهه يتغير، ويشخص ببصره إلى الأعلى قليلاً، ثم يفصد جبينه عرقاً، ثم يتمتم ويهمهم، وكأنّه يكلّم أشخاصاً غير موجودين، حتى يندهش الحضور ويصمتوا صمت المترقّب.

يبدأ الأخ علي نويتو في الحديث بصوت أعلى قليلاً، وبنظرة ترحيب لذاك المجهول، ويطلب من الحضور أن يفسحوا في المجلس قليلاً، وأن يتركوا مساحة فارغة، وقبل أن يسأل الإخوان لمن هذه الأماكن، يباغتهم الأخ علي نويتو بالقول: أرجو ألّا يقترب أحد من هذه المنطقة الفارغة، لماذا؟ لأنّها مخصصة للإخوان المسلمين من الجنّ!! مِنْ مَنْ؟؟ نعم من الجنّ، وليس هذا فقط؛ فالذي كان يهمهم معه هو الأخ المسؤول أو الأمير من الجنّ؟!!

هكذا تربّى الإخوان، وهكذا تمّ تجهيز العقل الإخواني لتقبل الخرافات، والوهم والتعامل مع الغيبيات على أنّها حقائق، هكذا تمّ بناء العقلية الخرافية

الإخوانية التي تفسّر الواقع بحسب قوى غيبية، وعند الجدّ تنتظر من هذه القوى مساندة مادية ملموسة، وليس فقط الدعم الروحي الدافع للتعامل مع الواقع، لذلك هم ينتظرون فعلاً معجزة خارقة للعادة تغيّر سير الحياة، وانتصاراً يتعجّب منه الجميع.

الإنكار وسيلة الإخوان للهروب من المحاكمات التاريخية

قال لي صديقي: ما رأيك في عمليات إعدام شباب الإخوان الأخيرة؟ فرددت عليه: رأيي من أي ناحية تقصد؟ قال: ألا ترى أنّهم أبرياء وأنّ الحكومة هي من لفقت لهم هذه التهم؟ هل تعلم أنّ أحد المتهمين قال للقاضي إنه خصيمه يوم القيامة؟! فقلت له: وهل هذا دليل براءته؟ قال: لا، ولكنه تحدّث عن التعذيب الذي تعرض له ليعترف.

فأطرقت قليلاً وقلت له سأقصّ عليك حكاية قصيرة ربما تفهم منها تصرفات الإخوان ومناوراتهم: في ليلة من ليالي خريف ٢٠٠٩ عقد مكتب إداري محافظة البحيرة لقاءً تربوياً مع «الأخ المجاهد» محمد نجيب راغب أحد قيادات التنظيم الخاص سابقاً، وأحد رموز العمل العمالي حين اللقاء، وبدأ الرجل حديثه كالمعتاد في مثل هذه اللقاءات، عن الإخوان و»دورهم المجيد» في تاريخ الإسلام نفسه، وأنّ مهمته الآن هي توريث هذا الصرح الكبير الأشم للأجيال التالية، ثم تطرق إلى نضال الإخوان في العهد الملكي وبداية الثورة وفي عهد جمال عبدالناصر، وتغيرت نبرات صوته وهو يتحدث عن حادثة المنشية العام ١٩٥٤، طننت أنّ ذلك بسبب كبر سنّه، وكان قد تجاوز الثمانين من عمره، لكني اكتشفت أنّ الرجل مثقل بهمّ كبير، وهو همّ الحقيقة والصدق، فقبل هذا اللقاء كان الإخوان يصرّون على أنّ محاولة الاغتيال تمثيلية ابتدعها عبدالناصر بالإخوان لينكّل بهم، وفنّدوا عدم منطقية الأحداث في أكثر من كتاب وفي عشرات المقالات، حتى ترسّخ في أذهاننا وأذهان الأجيال التالية في السبعينيات والثمانينيات؛ أنّ تلك الحادثة ملفقة تماماً ومصنوعة بالكلية وأنّ الإخوان أبرياء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

ألقى الضيف قنبلته؛ وأكد أنّ جماعة الإخوان المسلمين أرادت أن تغتال عبدالناصر في المنشية، وأنّ الحادثة حقيقية، وبدا وكأنّ الرجل يريد أن يتخلص

«محمد نجيب راغب أحد قيادات التنظيم الخاص اعترف بمحاولة الجماعة اغتيال عبدالناصر في حادثة المنشية»

من عبء يحمله في صدره نصف قرن، فاسترسل زاعماً إنّ هذه العملية جاءت كخطوة استباقية لما كان ينوى أن يفعله عبدالناصر بالإخوان، وأنّ العملية فشلت لاعتبارات متعددة، ليس منها قلة كفاءة منفذها محمود عبداللطيف، بل لأنّ العملية كان الخطة (ب) وليست الخطة الأساسية.

ذكر أنه حضر تسليم عبداللطيف المسدس الذي سيغتال به عبدالناصر، وأنّه ذهب إليه في محطة السكة الحديد ليتأكد من استقلاله القطار الى الاسكندرية ليقوم بعمليته هناك.

وقبل أن يسترسل في تفاصيل العملية كنا قد بدأنا نستوعب كلماته، ونفهم ماذا يقول، أتدري ماذا كان يقول الرجل؟

كان يقول ببساطة إنّ الجرائم التي ارتبطت بالإخوان حقيقية، وإنّ تاريخهم مليء بالأكاذيب، أتدري وقع تلك الكلمات على شباب ورجال صدّقوا الإخوان على مدار عشرات السنين؟ ها هو الرجل يعترف بالجريمة التي ظللنا نقسم بالله تعالى أنّها لم تحدث وأنّها مفبركة من الألف إلى الياء، وأنّ الذين أُعدموا من الإخوان هم أبرياء تماماً، وأن عبدالناصر أوقع بهم، بعدما خدع أحدهم وقال له لو اعترفت على الإخوان بأنهم هم من طلبوا منك اغتيالي سنجعلك «شاهد ملك»؛ أي شاهداً على الجريمة وليس فاعلها، ويخبرنا الإخوان أن هذا الأخ صرخ وهو ذاهب للمشنقة «ماتفقناش على كدا»!

الآن وبعد نصف قرن اكتشفت وعلى لسان أحد منفذي الجريمة أنّ كلام الإخوان مجرد كذب في كذب! وأنّ محضر التحقيقات صحيح مائة بالمائة وانفجر

«ها هو أحد قادتهم يعترف بجريمة ظللنا نقسم بالله تعالى أنها لم تحدث وأنّها مفبركة»

سؤال واتهام في عقلي وأنا أستمع له؛ هل يمكن أن يصل بالإخوان إتقان الكذب إلى هذه الدرجة؟

لهذا قاطعت استرساله معترضاً، فقلت له: حضرتك تقول إنّ الإخوان هم من دبّروا حادث المنشية؟ فقال: نعم. فقلت ولكننا على مدار عشرات السنين كان الإخوان يقولون لنا غير ذلك، وصدّقناهم، فكنا نقول للناس إنّ الإخوان أبرياء من هذه الجريمة، فقال متأثراً: اسمع يا أخي، نحن جيل تربّى جيداً، وكل واحد ينفذ تعليمات مسؤوله بالحذافير، وعندنا الاستعداد التام أن ننكر مسؤولية الجماعة وتتحمل نحن المسؤولية إذا العملية فشلت؛ لأنّه من غير المنطقي أن نعرّض الجماعة للخطر مع كل عملية تفشل!

لم أُفق من الصدمة، إن كل كلمات التبرئة التي قلناها للناس ظهر كذبها، إنّ كل الاتهامات التي سيقت في حق عبدالناصر تبين أنّ الرجل بريء منها، ولك أن تتخيل حالتي بعدما اكتشفت الحقيقة.

ثم قلت لصديقي: لاحظ أنّهم اعترفوا بعد قرابة خمسين سنة من الحادثة، بعدما انتهى عبدالناصر والسادات وقرابة نهاية مبارك، أي بعدما أفلتوا من المحاكمة التاريخية أو محاكمة أعضاء الإخوان لهم، اعترفوا بعدما أصبح اعترافهم ليس له قيمة، وصدّقني لا يصدق الكذوب أبداً، ثم قلت له: ومن يطول عمره سيسمع من الإخوان بعد خمسين سنة أخرى اعترافات مذهلة حول الفترة الحالية.

نظر صديقي مندهشاً وتركني أسبح ثانية في أحداث الإخوان المربكة والمريبة، وتذكرت أنني عندما كنت أراجع أفكار الجماعة وأحداثهم، أقف أمام هذه الجريمة، متسائلاً: لماذا لم يعترف الإخوان بهذه العملية تحديداً؟ لماذا

«التاريخ يعيد نفسه عندما قامت إحدى لجان الإخوان بقتل النائب العام وأدان القضاء تسعة منهم»

اعترفوا باغتيال الخازندار والنقراشي وقضية السيارة الجيب؟ ولم يعترفوا بحادثة المنشية؟ لماذا مارسوا الإنكار الشديد واستخدمونا لنكون لسانهم في نقل براءتهم المزيفة للناس؟

مع دخول أجواء السبعينيات، بدأ الإخوان في كتابة تاريخهم، وكانت القيادة السياسية تميل إلى تشويه عبدالناصر والتقليل من مكانته الشعبية، أما الحوادث الأخرى فقد تمت في العهد الملكي وهو عهد بائد انتهى رجاله وانتهى زمانه، وتشويههم لم يعد ذا فائدة، ثانياً هذه العملية بها من الدلالات الكثير، فالإخوان بعدما تصالحوا مع عبدالناصر في مكتبه، أصدروا أوامرهم إلى فصائلهم ولجانهم في التنظيم الخاص لتنفيذ مهمة التخلص منه، ثالثاً وهو الأهم أنّ المبررات الشرعية لإراقة دم عبد الناصر في هذه اللحظة لم تكن كافية وربما منعدمة أساساً، وبالتالي كان اختيار الإخوان للإنكار بهدف التنصل من عار سيلازمهم طويلاً، كما أنه يوفر لهم دعاية مجانية حول مظلوميتهم وتمثيلهم لدور الضحية.

وها هو التاريخ يعيد نفسه، قامت لجنة من لجان الإخوان بقتل النائب العام وأدان القضاء تسعة منهم، فلا سند شرعياً يبيح دمه ولا مكسب نالته الجماعة، بل خسائر من كل النواحي.

إذاً، لا بد من هروب وأفضل طريقة للهروب هي الصريخ والعويل والولولة، ودعاية كثيفة تشكك في نزاهة التحقيقات وفي عدالة القضاء وحكايات ملفقة من كل حدب وصوب، ومقولات تنسب للمدانين قبيل الإعدام، كل هذا لتضيع معالم القضية ولا يحاسبهم عليها أحد ويعيشوا دور الضحية.. لهذا ولغيره لا أصدق الإخوان..

كيف جرّنا الإسلاميون إلى بؤرة التخلف؟

في مطلع القرن العشرين، بدأت مصر تستعيد وعيها، وتكتشف كنزها المدفون، وانتعشت روح الوطنية والحس القومي، وتم ترسيخ المنهج العلمي، ومطاردة الوهم والدجل والشعوذة. فبعد أنْ قَتل الانتماءُ المزيف إلى الدولة العثمانية، الإحساسَ بالوطنية أو القومية، وبعد أنْ نشر المتسترّون بالدين الوهمَ والخزعبلات بين صفوف الشعوب، ظهرتْ للمصريين الحقيقة، واكتشفوا الطريق نحو تأسيسٍ جديدٍ لذاتٍ جديدة، فأخذتْ مصرُ تتخلى عن مظاهر التغييب العقلي، ومهّدتْ لتوطين الحياة العقلية المستنيرة، سواء في الفكر الإسلامي «الذي كان مشروع محمد عبده» كأحد تجليات التنوير، أو الفكر القانوني «مشروع السنهوري»، أحد تجليات الدولة المدنية الحديثة، وكان من ثماره أنْ بدأتْ موجةُ التنوير بالوصول إلى دستور عام ١٩٢٣م، الذي أسّسَ لحياة برلمانية واعدة.

ومع أول خطواتنا، في طريق الحداثة، من خلال الأدب والفكر والثقافة، ظهر لنا التيار الإسلامي «كتيار فقهي متشدّد»، وعدّ نفسَهُ ناصحاً أميناً للأمة، فانتدب قادةُ هذا التيار أنفسَهم، ليشخّصوا الدّاء ويصفوا الدواء، زعموا أنّهم سيزيلون غبار التخلف عنّا! فماذا كان تشخيصهم لما تعانيه الأمة؟ هو الابتعاد عن دينهم!!

يقول مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، حسن البنا: «..أعتقد أنّ السرّ في تأخّر المسلمين؛ هو ابتعادهم عن دينهم، وأنّ أساس الإصلاح العودةُ لتعاليم الإسلام وأحكامه، وأنّ ذلك ممكن لو عمل المسلمون، وأنّ فكرة جماعة الإخوان المسلمين تحقّق هذه الغاية)، وأصبحت هذه الجملة هي شعار كلّ فصائل الحركة الإسلامية من بعده، الكلّ يُصرّ على أنّ المسلمين ابتعدوا عن دينهم، وأنّ ما أصابهم من احتلال واختلال، إنّما هو عقاب من الله على هذا التخلي، وأنّ طرد المحتل يحتاج، أوّلاً، إلى العودة للدين الصحيح، التي سيتبعها أنْ يستعيد المسلمون مكانتهم في العالم. ولمناقشة هذه الفرضية، يجب أنْ نسأل أنفسَنا:

«إذا كان الانتصار مكافأة من الله للفئة المؤمنة فهل يمكن القول إنّ المنتصر هو دائماً الأكثر إيماناً؟»

هل فعلاً ابتعد المسلمون عن دينهم؟ وما المقصود بالدين؟ وهل هناك مظاهر دينية محددة، إذا حدثت في أيّ مجتمع، نقول إنّ هذا هو السبب في الانتصار أو السبب في الهزيمة؟ وإذا كان الانتصار مكافأة من الله للفئة المؤمنة، فهل يمكن القول إنّ المنتصر هو دائماً الأكثر إيماناً؟

إنّ التشخيص الخاطئ يؤدّي، بالضرورة، إلى علاج خطأ، وهذا العلاج يُعطّل الطاقات، ويبدّد المجهود، ويشتّت الأنظار عن العلاج الصحيح، وعلى المدى البعيد، يولّد الحسرةَ وانكسار الأمل، تماماً كما حدث أيام الحملة الفرنسية، عندما قدّم العاجزون حلاً وهمياً لمقاومة الفرنسيين الغزاة، فقالوا لهم إنّ عليهم البقاء في المسجد، وتلاوة القرآن، والدعاء لله أنْ ينجّيهم من البلاء، فلم يحثّوهم على استخدام الوسائل الحربية، أو تنظيم أنفسهم، كما نظّم الفرنسيون أنفسهم.
وها هم أبناء الحركة الإسلامية في القرن العشرين، يُصرّون على استخدام المنهج نفسه، فعندما أصابت الجميعَ الصدمةُ الحضارية، عندما التقينا بالغرب المتقدم، هرب الإسلاميون من تحمّل مسؤولية حثّ الأمة على امتلاك أدوات الحضارة، لتكون سبباً في رفع الهزيمة، وأول خطوة على طريق الإصلاح، وبحثوا في بضاعتهم، فلم يجدوا ما يقدّمونه للأمة العربية والإسلامية، سوى اتهام الشّعب بأنّه سبب البلاء، وسبب الهزيمة، لابتعادهم عن دينهم! «رغم أنهم الطّرف المجني عليه في هذه المعادلة». ومظاهر هذا الابتعاد هي: عدم اكتمال صفوف المساجد في الصلاة، خاصة صلاة الفجر، التي لا يحضرها إلّا قلة قليلة. ولمّا آمن كثير من الناس بتشخيصهم، نظراً إلى الابتزاز الديني والعاطفي، الذي مارسه الإسلاميون عليهم، وبعد أنْ شاع بين بسطاء الناس، أنّ تخلفهم سببه الابتعاد عن الدين؛ قدموا لهم الوهم بأنّه حلّ، لكن تحت أسماء جديدة، مثل: «حتمية الحل الإسلامي»، أو «الإسلام هو الحل»، أو «الإسلام دين ودولة»، فتغيّر سلّم الأولويات عند الجماهير، وبدل السّعي لامتلاك أدوات العمل، أصبح شُغلُنا الشّاغلُ إثبات أنّ الإسلام هو الحل، وبدل دراسة التاريخ ومعرفة كيف تقوم

«التشخيص الخاطئ يؤدّي إلى علاج خطأ وهذا يُعطّل الطاقات ويبدّد المجهود ويشتّت الأنظار عن العلاج الصحيح»

الأمم، أو ما سبب انهيارها، أصبح شغلنا إثبات انتمائنا للجزيرة العربية، وليس لذاتنا الإنسانية الحالية، وبدل التعرف على العلوم الاقتصادية، وكيفية النّمو، أصبحتْ مهمتنا أنْ نُحرّم وضع الأموال في البنوك ونضعها في شركات توظيف الأموال الإسلامية، ثم دارت معركة بين مؤيدي التشخيص الخطأ، والعلاج الخطأ، والرافضين لهما؛ فضاعت طاقات الأمة، واستُهلكت في قضايا خلافية تافهة، استنزفتْ قدراتنا في محاولات تطبيق العلاج الخطأ، والمحكوم عليه بعدم الجدوى «تاريخياً وواقعياً»، لا نحتاج الإشارة إلى أنّنا متأخرون في كل المجالات، فهذه حقيقة، لكنْ ليس لأنّنا ابتعدنا عن دين الله؛ بل لأننا ابتعدنا عن الأخذ بالأسباب، العلمية والمنهجية لهذه العلوم؛ فخطورة التشخيص الخطأ، ليس في أنّه خطأ، والتجربة كفيلة بإثبات فشله، إنّما الخطورة في تلك الفئة التي تحارب مَن يقول إنّه خطأ، الخطورة في ترسيخ منهجية غير عقلية أو علمية، الخطورة في اتهام المختلفين مع الإسلاميين، بأنّهم يحاربون الله ورسوله، فهل هناك عاقل يقف أمام الله؟؟ كان يجب على الصفوة والطليعة المثقفة، بالتعاون مع علماء القانون، وعلماء الاجتماع، والتاريخ، والاقتصاد، والسياسة، ...إلخ، أن يكشفوا زيف هذا التشخيص، ويفنّدوا فرضياته، فلم تكن مصر في أية لحظة من لحظاتها، قريبة أو بعيدة، عن الدين، لقد كان الشعب المصري شعباً طبيعياً، يؤمن بالله، وبرسوله الكريم، ويطبق الأحكام، وينحاز للأخلاق، في كلّ مرحلةٍ تاريخيةٍ، بما يتناسب مع طبيعة المرحلة التاريخية وخصائصها، والتدين الشعبي هو الأكثر استمرارية والأكثر بقاء.

إنّ المرض الذي كانت مصر تعاني منه، والأمة العربية، هو غياب العدالة المجتمعية والعدالة الاجتماعية، مع العدالة القضائية، وما كانت تعانيه مصر هو غياب الوعي، والضبابية، وغياب قواعد العلوم التطبيقية، كان يجب على

«لا نحتاج الإشارة إلى تأخرنا فهذه حقيقة لكنْ ليس لابتعادنا عن دين الله بل لابتعادنا عن الأخذ بالأسباب»

العلماء أن يقولوا لهم إنّ مظاهر المرض التي رصدوها خاطئة، فهذا موجود منذ عهد النبي، عليه السلام، ولم تكن الحياة الإسلامية في صدر الإسلام رائعة، كما توهّم هؤلاء؛ فبطون الكتب تخبرنا بحياة اجتماعية فيها ما فيها، فلم يكن العدل الاجتماعي موجوداً، ولا الإصلاح السياسي منشوداً، وغابت المؤسسة العادلة التي تقيم العدل، وغابت حرية الرأي، تستطيع أن تقول إنّ هذا هو المجتمع المثالي الذي يجب أن يعود، ليبتعد المصريون عن طريق الإصلاح الحقيقي؛ لأنّ المتضررين من وعي مصر الذاتي، كان يهمهم تغييب الوعي مرةً أخرى، هؤلاء ارتكبوا جريمة التشخيص الخاطئ، بالتالي، وصفوا العلاج الخاطئ، فمَنْ يشخّص لنا الدّاء، ويصفُ لنا الدّواء الصحيح؟!

الكراهية والانتقام أحد أسرار التوريث الإخواني

يعد التوريث أهم سر من أسرار جماعة الإخوان المسلمين، فاستمرار الجماعة في دورها الوظيفي في المجتمع لا يرتكز على فكرة دينية خالصة؛ بل يعتمد على ترسيخ أفكار تنظيمية في ثوب ديني، والأخطر أنّ هذه الأفكار لا تدعم الانتماء ولا تشيع السلام، ولا تعمل على تنشئة صحيحة لعناصرهم؛ فالتربية عند الإخوان ليست كما يفهم التربويون أنها تعديل في السلوك أو الوصول بالمربى لأن تكون سلوكياته إيجابية في كثير من النواحي؛ بل الوصول بالعنصر الإخواني لأن يكون تابعاً شديد الولاء للجماعة على حساب أي كيان آخر.

إنّ عملية التوريث في الإخوان هي القدرة على غرس قيم الجماعة التنظيمية ونقل المشاعر السلبية مثل عدم الانتماء للوطن، الاستعلاء والإحساس بالتفوق النوعي، والشعور بالحقد والكراهية والتشفي، وأخيراً الرغبة في الثأر والانتقام، كل تلك المشاعر التي حصدوها في كل تجاربهم الفاشلة السابقة ينقلونها إلى الأجيال التالية، وتحتاج إلى ثلاثة أركان؛ المورثون: وهم الأجيال السابقة، والوارثون وهم: الجيل الحالي، والميراث وهو: قيم الجماعة التنظيمية، أما آلية التوريث: فهي نقل حصاد تجارب التنظيم السابقة للأجيال التالية عبر وسائل مختلفة؛ منها لقاءات الأسرة التربوية (الخلية الأولى في التنظيم)، ولقاءات الكتائب ولقاءات التثقيف ووضوح الرؤية التي تعد الحبل السري الممتد من القيادة إلى القاعدة.

في البداية يتم ضخ تقليل الشعور بالذات وبقيمة الفرد، ففي سبيل ضمان بقاء عضو الجماعة في التنظيم يتم غرس فكرة أنّ لا قيمة له منفرداً، وإنّ قيمته تتحدد حسب انتمائه للجماعة، بل حسب درجته في التنظيم، لهذا يتصارع الإخوان على مناصب التنظيم ليس لأنّ فيها مكاسب مادية بل لأنّها شهادة بقيمته، من خلال آلاف الكلمات الموجهة حول أهمية الجماعة والعمل الجماعي،

«استمرار الجماعة بدورها الوظيفي لا يرتكز على فكرة دينية خالصة بل على ترسيخ أفكار تنظيمية بثوب ديني»

وأنّ الفرد لن يكون بغير جماعته، والجماعة ستكون دائماً به أو بغيره، لذا لا يقبل القادة شركاء في الانتماء، فلا يقبلون أن تكون محباً لجماعة أخرى، أو أن تتواصل معهم، أو يكون لك رافداً ثقافياً غير كتبهم، ثم يورثون لأعضائهم مفهوماً مغلوطاً عن الولاء والبراء، فيجعلون أنّ الولاء الحقيقي يكون للجماعة والتنظيم لأنّها هي التي تعمل للإسلام دون غيرها، وأنّ هذا الولاء فوق أي ولاء آخر، سواء للوطن أو للعائلة أو حتى لأسرتك الصغيرة إذا كنت متزوجاً.

كما يستخدمون أحاديث نبوية ويفسرونها بما يتوافق مع توجهاتهم، ويستخرجون من الحكايات ما يناسبهم ولو قسراً، حتى لو اضطروا أن يطمسوا الحقائق، ويكذبوا في سرد الوقائع؛ فمثلاً يوظفون خبر ورد عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، أنّ ابنه الأكبر قال له بعد أن أسلم، إنّه كان يهرب من مواجهته في بدر حتى لا يلتقيا، فرد عليه أبو بكر حازماً أنّه كان يبحث عنه ليقتله، أو ذلك الخبر الذي يذكر أنّ أحد الصحابة وجد أخاه أسيراً، فقال للصحابي الذي أسره أشدد عليه، فإنّ له أماً غنية ستدفع له الفدية، وهكذا حتى أن أحدهم كان يفاخر أمامنا أنّ الجماعة لو أمرته أن يطلق زوجته لطلقها امتثالاً لأوامر الدعوة (التنظيم)، كما فعل نبي الله إسماعيل عندما نصحه نبي الله إبراهيم، عليهما السلام، أن يغير عتبة بيته (كناية عن الزوجة)، فيرث عضو الجماعة ضعف انتماء للعائلة ولو وصل الحال لقطع الرحم إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ثم يورث الإخوان لاتباعهم أنهم يحتكرون الحق والإيمان، ولذلك يدعون المجتمع إلى ما هم عليه، وليس إلى ما عليه الإسلام، هذا الاستعلاء يبدأ بالتأكيد على أنّهم متفرّدون عن أقرانهم وأقاربهم لأنّهم يعملون للإسلام، وأنهم الأكثر فهماً للإسلام بل هم وحدهم من حباهم الله تعالى بفهم صحيح للدين، وأنّ

«عملية التوريث في الإخوان هي القدرة على غرس قيم الجماعة التنظيمية ونقل المشاعر السلبية»

غيرهم متردد ونفعي، وأنّهم وحدهم ورثة رسول الله، والذين يحملون رايته، وأنّ وعد الله لهم أنهم سينتصرون كما انتصر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأنّ العالم أجمع سيحاربهم، وعليهم ألّا يغتروا بأهل التدين وبصلاحهم، ولا بأصحاب الهيئات ورؤساء الحكومات، ولا برجال الأعمال ورؤساء الأحزاب، ولا بعلماء الدين من غير الإخوان، فالكلّ سيعادي الإخوان، لا لشيء إلّا لأنهم إخوان، لذا لا يقبل أعضاء الجماعة أي نقد لجماعتهم أو قادتهم، أو أي دراسة عن أخطاء الجماعة سياسياً وتنظيمياً، ولا يسمحون حتى لقراءة جديدة لتاريخ الإخوان، فميراثهم الذي استلموه من الأجيال السابقة يؤكد أنّهم الحق وغيرهم هو الباطل، ولا يمكن لهم أن يسمحوا لأهل الباطل أن ينتقد أهل الحق!!

ثم يورثون الحقد والكراهية، مطبقين عملياً فكر سيد قطب في «معالم على الطريق» إذ يقول: «ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي، ولا أن ندين له بالولاء، فهو بهذه الصفة الجاهلية غير قابل لأن نصطلح معه، إنّ أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته، وألا نعول من قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنلتقي معه في منتصف الطريق، كلاً، إننا وإياه على مفترق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله، ونفقد الطريق».

لهذا دائماً ما يشيع الإخوان أنّ الوطن ظالم وقاسٍ غير عادل، ويستحضرون مواقف متراكمة لما يزعمون أنّهم لاقوه عبر العقود الماضية أو الحالية، فيولدون

«يستخدمون أحاديث نبوية ويفسرونها بما يتوافق مع توجهاتهم ويستخرجون من الحكايات ما يناسبهم ولو قسراً»

«كل من يعتبر الإخوان «جماعة دعوية» دون أن يرى الآثار الجانبية لها يرتكب خطأ كبيراً بحق الأجيال التالية»

في الجيل الحالي ميراث الكراهية القديم الذي لم يشهده الجيل الحالي، فيصبح من الطبيعي أن يكره عضو الجماعة الرئيس جمال عبد الناصر رغم أنه مات قبل أن يولد عضو الجماعة نفسه أو حتى والده، ويتجاوز ميراث الكراهية للأشخاص إلى الوطن ذاته، حتى انتقلت الكراهية للمتأثرين بخطابهم تجاه الوطن باعتباره دار حرب يستحق البراء منه ومن أهله ومن جرائمه ويفرحون لهزائمه ويحزنون لأفراحه.

كما يورثون أخطر مفاهيمهم كحتمية الثأر، أو حتمية الانتصار، فعناصر الجماعة تؤمن أنّهم يعملون للإسلام، وأن ما واجهوه إنّما هو ضريبة الجهاد في سبيل الله وليس لخرقهم القانون، لذا لم ولن يتقبلوا أي عقوبة، بل يرونها كما يرون جرائم قريش ضد الصحابة، ولأنّهم يؤمنون أنّهم يحملون راية رسول الله، فهم يؤمنون بالتبعية أنهم سينتصرون كما انتصر الرسول الكريم، وهم لا يقصدون الانتصار بمعنى انتصار قيم العدل الخير والحرية التي يحملها الإسلام، بل يقصدون الانتصار العسكري الذي يتم عبر معركة تسيل فيها الدماء، ويمنّون أنفسهم بالانتقام بعد الانتصار من كل من تسبب في هزيمتهم السابقة، ويتركون لخيالهم العنان في تصور الطرق البشعة التي سيستخدمونها ضد أعدائهم.

في النهاية لا يمكن أنّ نعتبر أنّ الثقافة الإسلامية «القشرية» التي يتمسح بها الإخوان هي ميراث الجماعة، بل ميراثهم الحقيقي بث الكراهية والفرقة وعدم الانتماء والاندفاع نحو الثأر والانتقام، وكل من يعتبر جماعة الإخوان «جماعة دعوية» دون أن يرى الآثار الجانبية لها يرتكب خطأ كبيراً في حق الأجيال التالية، التي يجب أن تعرف حقيقة الدور الوظيفي لهذه الجماعة، وكيف شوّهت روح وعقل أتباعها، وسهّلت الخيانة للوطن بزعم اختلاف وجهات النظر.